أشياء غير معلنة

عبد القادر حسين

أحداث الرواية وشخصياتها ليست حقيقية وإنما هي
من نسج الخيال

{ ١ }

صحا عبد الدايم من نومه مبكرا كعادته كل يوم، وهــو يتململ في فراشه الطريّ الدافئ، وعيناه مغمضتان، وتكــاد أن تكون مغلقة، فهو لم ينشط بعد لاستقبال هذا اليوم الجيد، اليوم الذي يتحقق فيه رجاؤه، بالالتحاق بمدرسة تحفــيظ القــرآن الكريم، ونور الصباح الواهن يتسلل من خصــاص النافــذة، ويتسرب شعاعا باهتا داخل غرفته التي ينام فيها، يصحو كــل يوم في هذا الوقت على وجه التقريب، يحرك يديه وقدميــه في تراخ وكسل، مما يدل على أنه لم يأخذ القسط الوافي من النوم والراحة.

تسرب الضوء داخل الغرفة شيئا فشيئا حتى زالت غبشــة الفجر، وتحول الظلام الباهت إلى ضياء نافذ، نهض من فراشــه وتوضأ، وصلى الصبح كما اعتاد والديه الصلاة كل يوم، تناول إفطاره، وارتدى ملابسه، وتوجه في طريقه إلى مدرسة تحفــيظ القرآن الكريم، بشارع نخلة، أول شارع شبرا، بحذاء جزيــرة بدران، وهو الآن موقف سيارات النقل العام في شارع أحمــد حلمي، هذه الملابس التي يرتديها أول مرة بهذه المناسبة السعيدة

فرح بها فرحا شديدا، وملأه الزهو والافتخار؛ لأنه سيلتحق بمدرسة يحفظ فيها القرآن الكريم، ويحسن تلاوته، فإذا أتم حفظه تقدم إلى الأزهر الشريف؛ ليصبح واحدا من طلابه، ثم شيخا يشار إليه بالبنان.

مدة الدراسة في هذه المدرسة ست سنوات كاملة، يقسم فيها حفظ القرآن لكل عام خمسة أجزاء كاملة، حتى ينتهي من حفظه في ست سنوات.

عبد الدايم كان مجيدا لحفظ القرآن، ومسائل الحساب، ومبادئ الإملاء المقررة في المدرسة، وكان أبوه الحاج علي متيسر الحال، لا يبخل في سبيل تعليم أولاده وتحفيظهم القرآن بالمال، يجلب أحد المدرسين من المدرسة إلى المترل؛ يعينهم في حفظ القرآن، وتسميع سوره وآياته.

صار عبد الدايم يتنقل من سنة دراسية إلى أخرى، مواظبا على حفظ القرآن وأجزائه المقررة في كل عام، حتى وصل إلى السنة الخامسة.

عبد الله منصور، أحد زملائه في المدرسة، طالب متفوق شديد الذكاء،سريع الفهم والاستيعاب، قوي الذاكرة، عرف

بين زملائه وأساتذته بهذا التفوق والنبوغ، غير أنه في السنة الثالثة، وعبد الدايم في السنة الخامسة، طلب والد عبد الله منصور من إدارة المدرسة أن تعقد اختبارا لابنه المتفوق، فهو يتطلع إلى أن يقفز بابنه سنة دراسية إذا نجح في الاختبار، فيختصر المسافة بينه وبين تخرجه في المدرسة، أجري له الاختبار في مقرر السنة الرابعة، وهو بعد لم يلتحق بها، ولم يسجل بين تلاميذها، فنجح في الاختبار، وأصبح زميلا لتلاميذ الفرقة الخامسة، وفي نفس الفصل الذي يجلس فيه عبد الدايم.

عبد الدايم وعبد الله منصور يتسابقان في تسميع القرآن، وفي حل مسائل الحساب، وأصبح التنافس بينهما دائما رائدا في كل درس، في القرآن، وفي الحساب، وفي الإملاء، من منهما ينتهي من حل المسائل قبل الآخر ويقدمها لمدرس الفصل، ويحصل على تأشيرة الشيخ بأنه ممتاز، مرة كان عبد الله منصور يتقدم على زميله عبد الدايم، وأخرى يتقدم عبد الدايم على زميله منصور، أصبحا كفرسي رهان، من يصل منهما أولا ويكون له السبق؟ وفي إحدى المرات سابق عبد الدايم زميله عبد الله منصور فسبقه وتقدم بكراسته ليصححها له المدرس، وكان عبد الدايم لسرعته

في الإجابة وكتابتها نسي أن يكتب التمييز لمسألة من مسائل الحساب، وكانت صحة المسألة أن الناتج ١٥ تلميذا، فكتب الناتج ١٥ دون كلمة (تلميذا)، ونسي تمييز العدد، فما كان من الشيخ عبد المقصود مدرس الحساب إلا أن طلب من عبد الدايم أن يقلب يديه على ظهرها حتى يتلقى ثلاث ضربات مؤلمة لها دوي هائل، يرفع العصا إلى أعلى ثم تهوي كالصاعقة على يد عبد الدايم، فتحدث فرقعة في الهواء، وتترل على قفا اليد إذا ثبتت ولم يبعدها عن طريق العصا، وكان اليوم شتاء باردا، والضربة فيه موجعة، لا يتحملها الرجل الفارع العريض الطويل، فكيف بطفل لا يزيد عمره عن عشر سنوات إلا قليلا، نحيل الجسد ضعيف البنية، ومدرس الحساب قوي البنية، ضخم الجثة، جهير الصوت، إذا زمجر انخلعت لضجة صوته وزئير حنجرته قلوب الأطفال الصغار، الذين يدرسون في مرحلة حفظ القرآن قبل المرحلة الأولى الابتدائية.

شعر عبد الدايم بالألم الشديد، والفزع الرهيب، من سقوط الخرزانة على ظهر يديه، فانخرط في بكاء مر متواصل، و أراد أن يخفف هذا الألم فوضع يديه تحت صنبور الماء البارد، وهو

ينخرط في نشيج عال يمزق أوصال زملائه، ورجع إلى مترله ينهنه بالبكاء، وهو في الطريق ما بين المدرسة والمترل، شارع متعرج، فصادف امرأة كانت تجتاز هذا الطريق، امرأة بدينة تتلفع بملاءة تلف بها جسدها الممتلئ، العالي الضخم، رأت عبد الدايم ينخرط في بكاء مر، ونشيج متواصل، يمزق صدور السامعين، فاستوقفته، وسألته عن سبب بكائه، فحكى لها ما كان من مدرس الحساب، وما فعله به، فأخذته من يده وجرته معها لتعرف هذا المدرس، وتؤنبه على قسوته وفظاظته في معاملة تلاميذه.

دخلت المدرسة والطفل عبد الدايم في يدها، سألت أين الشيخ عبد المقصود مدرس الحساب؟ الرجل المفتري الذي خلا قلبه من الشفقة – وكنت قد أخبرتها باسمه – الرجل القاسي الذي لا يعرف الرحمة، أين هو؟ ولكن الشيخ عبد المقصود كأنه فص ملح وداب، اختفي ولم يظهر أمامها، بل الذي ظهر أمامها، وتلقى كلماتها المؤنبة الجارحة، هو الشيخ أبو زهرة مدير المدرسة، كيف يتعامل الشيخ عبد المقصود بهذه الطريقة الفظيعة مع الأطفال الصغار، أليس له أبناء يخشى عليهم، ويخاف أن

يمسهم أحد بسوء، فما باله لا يخاف على أبناء الناس! أليس في قلبه رحمة؟ ألا يعرف العطف والشفقة؟ أهو معلم أم سجان؟ والأولاد أهم في مدرسة أم في سجن؟! إن مهمته وعمله أن يدرس للتلاميذ لا أن يعاقبهم، فهم صغار لا يتحملون الضرب والإهانة، وغسلت الشيخ "أبو زهرة"، وألقت على رأسه دشا باردا في نهار الشتاء، أيام شهر طوبة، شفت غليلها، وأخرجت ما بصدرها من لاذع الكلم، وبذيء الشتائم، ما لم يكن يتوقعه عبد الدايم ولا ينتظره من بنت بلد صادفها عرضا في الطريق، لم يكن يعرفها من قبل، ولا رآها في مناسبة من المناسبات، لم تكن إحدى قريباته، ولا يهمها من شأنه قليل أو كثير.

حدث عبد الدايم نفسه وهو يتساءل: كيف لرجل مثل الشيخ عبد المقصود الطويل العريض، الذي يسد بقامته المديدة عين الشمس، الذي يرهب التلاميذ، وزملاؤه يعملون له ألف حساب؛ خوفا من صوته العالي، الذي يرتج له الفصل، وإذا غضب انكمش التلاميذ بعضهم في بعض، وبدا عليهم الرعب، ولم ينبس أحدهم بحرف، وإنما يتملكهم الهلع، وتعلو الصفرة وجوههم، حتى إن بعضهم ذات مرة بال على نفسه حين زأر في

وجهه الشيخ عبد المقصود، من فرط الخوف، وتوقع بأنه سوف يضربه بالمسطرة على ظهر يده، هذا الرجل المرعب تخيفه امرأة؟ ولم يجرؤ على مواجهتها أو الوقوف أمامها؟! رجل ذكر خشـــن غليظ الصوت، يجلجل في الفصل يختفي أمام حرمـــة؟!! أنثـــى ناعمة! لكن يبدو أن الشيخ عبد المقصود لا تظهر رجولتـــه إلا أمام التلاميذ الصغار، الذين لا يملكون من أمـــرهم شـــيئا،ولا يستطيعون أن يرفعوا أصواقم أمامه، فإذا جاءت امرأة وتبرمت وارتفع صوقما في المدرسة، تلعن طريقة الشيخ عبد المقصـــود في التعليم، وتندد بضربه التلاميذ بهذه الشدة، التي حركت قلـــب امرأة صادفته عرضا في الطريق، فصحبته إلى المدرسة؛ لتقتص له من الشيخ عبد المقصود القاسي، ولكن الشيخ عبد المقصـــود لم يقو على منازلتها، ففر هاربا من المعركة، قبل أن يخسرها أمـــام زملائه من المدرسين.

انتهى عبد الدايم من حفظ القرآن في ست سنوات، حفظه جيدا ظهرا لقلب، كان من أمهر تلاميذ المدرسة، ومشهودا له بين الأساتذة بحافظته القوية، التي لم تتخل عنه أبدا، حتى إنه كان يتلو القرآن وهو في طريقه لقضاء بعض حاجات الأسرة، فـــلا

يخطئ في كلمة، ولا يبدل آية مكان آية، ويعرف موضع الآيـــة في السورة دون تلعثم، حتى إنه كان يتقدم للمســـابقات الـــتي تعقدها جمعية الشبان المسلمين فيبتسم له الحظ دائما.

أيضا كان عبد الدايم يحافظ على تفوقه في مسائل الحساب، جمعا وطرحا، وضربا وقسمة، ولم يعد ينسى أبدا كتابـــة تمييـــز مسائل الحساب، التي كان يطلبها منه الشيخ عبد المقصود.

* * *

{٢}

محمود مصطفي ابن خال عبد الدايم، نشأ معه في حارة واحدة يلعبان مع بعض الأصدقاء الصغار، أو يسيران في الطريق يتأبط أحدهما ذراع الآخر، لا ينفك الواحد منهما عن صديقه، صديقان قريبان في النسب من جهة الأم، يذهبان معا إلى المدرسة لحفظ القرآن الكريم بشارع نخلة، بين البيت والمدرسة طريق ضيق ليس طويلا لا يتجاوز مائتي متر، يفضي إلى باب المدرسة، بها فناء يتسع للعب التلاميذ وصياحهم العالي المستمر في أوقات الفسحة، يدق جرس الدخول في الفصول في الثامنة صباحا، يقف التلاميذ في صفوف منتظمة، كل يعرف مكانه في الصف من السنة الأولى حتى السادسة، يحفظون القرآن الكريم، وهو المادة الأساسية التي أنشئت بسببها هذه المدرسة وأمثالها التي تتوزع في أنحاء القاهرة، بجوار مواد أخرى مثل مبادئ الحساب من جمع وطرح وضرب وقسمة، والإملاء والخط والمطالعة، فإذا انتهى التلميذ من السنة السادسة كان تخرجه عونا له في الانتساب للأزهر الشريف، وكان مؤهلا لمواجهة الحياة وصعابها.

التلميذ الذي يقضي شوطا من التعليم بهذه المدرسة، ويصعب لديه الاستمرار، ويصبح غير قادر على مواصلة الدراسة، يسلك طريقا آخر تؤهله له قدراته الذهنية واستعداده النفسي، كأن يعمل بإحدى الحرف، أو موظفا صغيرا في إحدى الدوائر الحكومية، وربما تخبط في طريق وعر شائك يظل يئن منه طوال حياته الصعبة المريرة.

أبو محمود الشيخ مصطفي يتحرق شوقا لإلحاق ابنه محمود بالأزهر الشريف.

كثير من أعيان القرى وبعض الآباء الذين يكدحون في زراعة أراضيهم وتربية مواشيهم، يودون من صميم قلوبهم أن يكون لدراسة أبنائهم نصيب في حلقات الأزهر، بمناراته العالية ومآذنه السامقة، وأعمدته الشاهقة، وساحاته الفسيحة، وأهم من ذلك كله تحلق الطلاب حول مشايخهم وتلقي العلم على أيديهم، هكذا كان الآباء يحلمون في شوق إلى تحقيق هذا الأمل الواسع العريض الذي يداعب أجفانهم في ساعات القيلولة، أو عند احتوائهم المضاجع بعد صلاة العشاء، يفرح بقنص هذا الأمل الآباء والجيران والقرية كلها عندما يجدون واحدا من

أبنائها اعتلى المنبر يحدث الناس في عرض مشكلاتهم، ويقــول كلمته التي لا راد لها في شئون حياتهم، يلوذون به كلما عنّ لهم أمر، أو اقتحم حياتهم الهادئة شيء، يسعون إليه بــدلا مــن أن يفزعوا إلى شيخ آخر من الأزهر في بلد قريب أو بعيد.

إن أهل القرية جميعا يحتفلون بهذا الصبي الذي لم يبلغ الحلم ويتوجونه إماما لهم منذ اقتحامه أعتاب الأزهر، وقبل أن ينــهل من معين دروسه الباهرة وآراء شيوخه المتشــعبة في التفســير والحديث وأركان الدين.

أساتذة المدرسة التي التحق بها وانخرط في صفوفها عبد الدايم وابن خاله محمود في عمر الشباب، وربما يمتد العمر بأحــدهم فيتعدى الثلاثين ربيعا، يضعون على رؤوسهم العمائم الحمــراء يستدير حولها الشال الأبيض، ويغطي أجسامهم القفطان السابغ وحزام عريض يتساوق في لونه بالقفطان، يشده عن الانــزلاق ويمنعه من ملامسة الأرض، ملابسهم نظيفة منسجمة، وهم على هيئة طيبة من السلوك والأخلاق، ولكن الواحد منــهم يثــور ويخرج عن مشاعره الطيبة، ويتبدد هدوءه وتنقشــع ســكينته ويصبح شخصا آخر غير الذي كان، إذا وجد تلميذا مضطربا

في الحفظ متلعثما في تسميع الربع الذي كلفه بحفظه.

كل يوم يأخذ التلميذ قدرا معينا من الآيات الكريمة يكتبها في اللوح الارتوازي إمعانا في المراجعة وزيـادة في الـتمكين، والأستاذ يفضل هذه الطريقة عن الحفظ مباشرة من المصـحف الشريف، ويأتي في اليوم التالي ليردد التلميذ ما حفظ بالأمس، ومن يتردد في تسميع التلاوة أو يخطئ في آية من الآيات فالويل له، وجزاؤه ضرب بالعصا الغليظة في جـو الشـتاء الـلاذع وبرودته القاسية، العصا تنزل من عليائها فتهبط بصوتها المكتوم على يد التلميذ الواهنة فيصرخ ويبدل اليد بـالأخرى حـتى يستطيع أن يتحمل الضربات، ضرب بلا رحمـة ولا هـوادة، فالمسطرة ذات السن الحاد أو العصا المخيفة تنزل على اليد تجتاز طبقات الهواء فتحدث أزيزا تهلع له نفس التلميذ قبل أن تصل العصا إلى يديه، وليس أقل من ثلاث ضربات يبدل فيها إحدى اليدين بالأخرى.

عبد الدايم مجد في دراسته يحفظ القرآن كما أنـزل وكمـا كتب في اللوح الارتوازي وطلب منه أن يعيد تلاوته في اليـوم التالي، فيردد ما حفظ دون خطأ أو تلعثم، فلم يكـن يشـغله

شاغل عن حفظ القرآن، يكرر ما سمع من الشيخ في المدرسة دون أن يخطئ في آية من الآيات، وإذا طلب منه قضاء حاجة للمنزل يكرر في الطريق ما سمع من الشيخ في المدرسة، وما استظهره في المنزل، ولا يفتأ يكرر الآية تلو الآية حتى يعود إلى منزله وقد أجاد حفظ الآيات تلاوة وتسميعا.

محمود ابن خاله له شأن آخر، لا يهتم بحفظ ما أملى عليه من درس، وما طلبه أستاذه من حفظ، فلا ينظر إلى درسه في المصحف، ولا يقرأ ما كتبه في اللوح الارتوازي، ويعود في اليوم التالي إلى المدرسة محملا بأثقال الإهمال والخوف، منتظرا جزاء إهماله وتقصيره.

بعض المدرسين قساة القلوب، غلاظ الأكباد، لا يتعامل الواحد منهم مع تلاميذه في المدرسة كما يتعامل مع أبنائه في البيت، ومحمود دائم الوقوع بين مخالبهم الحادة، ويظل فريسة لهم يصرخ ويتلوى بين أيديهم حين يبدو عليهم النشاط المحموم والهمة العالية التي تجعلهم يتلذذون بضربه العنيف، وصياحه الشديد، يضربونه بالعصا حتى تتخدر أيديهم من الضرب المبرح.

يطلب الشيخ من محمود أن يستلقي على أرض الحجرة الباردة بين المقاعد والسبورة، يجلس على مقعدته، ويرفع قدميه الاثنتين إلى أعلى، ويأمر أحد التلاميذ بإمساك القدمين بعد ربطهما بحبل متين، وربما يستعين الشيخ بفرّاش من المدرسة، الذي يمسح الفصول ويرش الفناء، في هذه المهمة، يربط الفرّاش القدمين ويؤكد على ذلك حتى يضمن ألا ينفك الحبل، فيخطئ الشيخ في ضرب القدمين، ويمسك زميل محمود بقدميه المتجهتين إلى أعلى، ولهيب العصا يشق هواء الحجرة، ويترل على قدميه كما تترل الصخرة من القمة على أسفل الوادي الأخضر فتهشم كل ما يصادفها.

يصرخ محمود ولا يستجيب أحد لصراخه، يتأوه بصوت شاهق متوسل ولا ينجده أحد، يبكي مستنجدا ولا تلج الشفقة قلب الشيخ ليكف عن هذا الضرب العنيف، والإيذاء القاسي، دموعه تسيل على خده دون توقف، فإذا انتهى الشيخ من هذه المهمة القاسية التي يتلذذ بها وتوغر عليه صدر التلاميذ، ارتمى محمود على مقعده متهالكا، تسمع شهيقه وولولته ونواحه ونهنهته طوال الوقت، لا أحد يخفف ما أصابه من ضرب وهوان

ويؤكد عبد الدايم أنه أحصى مع زملائه في الفصل عدد الضربات التي هبطت على قدمي محمود فكانت مائة عصا، وهو طفل صغير لا يتجاوز العشر سنوات، وإن كان قوي البدن متين البنيان، هبط على قدميه كما يهبط الصقر بمخالبه الحادة وعينيه النافذتين على عصفور ضاوي الجسد صغير الحجم، فيضربه بمخالبه، ويحويه بجناحيه فيدمي جسده ويمزقه بمنقاره الحاد وينهشه بمخالب كالسكين.

انكمش محمود في داره وهانت عليه نفسه، ونظر متوجعا إلى قدميه المنتفختين المتورمتين، اختنقت أنفاسه، وضاقت نفسه، ومقت المدرسة مقتا شديدا، وتمنى لو كان في مقدوره أن يمسك بتلابيب الشيخ الذي ضربه بالأمس أمام زملائه وطرحه أرضا ومسح به بلاط الفصل، أهانه على مرأى منهم، لو يستطيع أن يضرب الشيخ كما ضربه، هل يقدر أن يمدده على الأرض، ويمسكه أحد التلاميذ ويضم قدميه، ويرفعهما إلى أعلى ويهوي عليهما بالعصا كما فعل معه بالأمس، إنه يحلم ويعيش في عالم من الخيال لا يمت إلى عالمه الضيق بصلة.

في اليوم التالي قرر محمود في نفسه ألا يذهب إلى المدرسة، فهل تخلّف لمرض أصابه، أم غرض عائلي منعه من الذهاب

إليها، أو حالة نفسية طرأت عليه فقيدت حركته ولم يعد قادرا على الذهاب إلى المدرسة؟

سأل الشيخ رفيقه عبد الدايم وهو يعلم أنه يمت بصلة القرابة إلى محمود، سأله عن سبب تخلفه، ما الذي منعه من الحضور إلى المدرسة؟

طلب من عبد الدايم أن يذهب إلى بيت محمود ويحضره معه، فإن لم يجده فليبحث عنه في كل مكان حتى يجئ به ولا يحضـــر دونه.

سأل عبد الدايم عن محمود في بيته فأخبرته والدته أنه خرج في الصباح يحمل كراساته ولوحه الإرتوازي وذهـــب متجهـــا إلى المدرسة، إذن فقد خرج إلى المدرسة لينال قسطه مـــن التعلـــيم وحفظ القرآن الكريم، ولكنه فكر وقرر، ودبر وخطط، فلم تطأ قدماه الطريق، ولم تلج بوابة المدرسة.

لقد ضرب بالأمس ، لا بأس، لا غرابـــة في ذلـــك، فكـــل التلاميذ يضربون، وتنهال العصي على أكفهم وأقدامهم وقـــد تطيش فتهوى على أبدانهم، وكل حســـب خطئـــه وفداحـــة تقصيره، فليس غريبا أن يضرب المهمل، وأن يعاقب المقصر في أداء الواجب، هكذا قال الشيخ أبو زهرة.

تورمت القدمان واحمر باطنهما، وعانى من الألم الرهيب، والمهانة الشديدة، فكان تخلفه عن الحضور للمدرسة مثار دهشة من شيوخه المدرسين، وعلى رأسهم الشيخ أبو زهرة ناظر المدرسة.

ما حدث لمحمود ليس بدعة ولا قهرا، وإنما يتكرر الضرب مع كل مهمل في درسه، أو مقصر في أداء واجبه.

طلب الشيخ حمزة مدرس الفصل، وناظر المدرسة الشيخ أبو زهرة من عبد الدايم أن يهم ويبحث عن ابن خاله، وعليه أن يحضره إلى المدرسة مهما كان الأمر، يبحث عنه في كل مكان، في كل الأماكن التي يحتمل أن يذهب إليها، فإذا وجده عليه أن يصحبه معه، ويجره إلى المدرسة جرا، عليه أن يمسك به جيدا حتى لا يفر منه، فمحمود أقوى من عبد الدايم بنية، وأشد قوة، وعبد الدايم ضعيف البنية، واهن القوة، ولكن عليه أن يحرص على الإمساك به ولا يفلت منه بسبب من الأسباب.

طرق عبد الدايم كل الأماكن التي يذهب إليها محمود ابن خاله فلم يعثر عليه، وبعد تفكير تذكر أنه يحب الأماكن المتسعة الخالية، يحب الأراضي الزراعية والخضرة الدائمة، وصوت

النواعير تسحبها الثيران الممتلئة، أو الأبقار التي وضع أمام عينها حائل يحجب عنها ضوء الشمس، هرع إلى تلك الأماكن، فالأرض الزراعية قريبة من المنزل، والحقول الممتدة والخضرة الدائمة قاب قوسين من الطريق، فهي على مرمى البصر، ومسافة انطلاق حجر، حتى يكون بين هذه الحقول والزروع.

كانت الحقول ممتدة من شرق منطقة العسال تلك المنطقة الموغلة في شعبيتها وطريقة حياتها من عراك الأطفال يستتبعه شجار الرجال وصراخ الحريم لأتفه الأسباب، وبعد لحظات تسمع ارتفاع الزغاريد والأخذ بالأحضان، هذه المنطقة الممتدة حتى شارع العطار، تحيط بها حقول فسيحة مكسوة بالخضرة الدائمة، تجري على طرقها المياه التي تسكبها السواقي، وتحط عليها العصافير واليمام، والغربان وأبو قردان.

ذهب عبد الدايم إلى هذه الحقول علّه يعثر على محمود ابن خاله، ويعود به إلى المدرسة مبتهجا بالنصر، متأبطا ذراعه ممسكا به حتى لا يفلت منه، ويكون قد حقق مهمته الكبرى التي أسندها إليه الشيخ حمزة مدرس الفصل وألقاها على عاتقه الشيخ أبو زهرة ناظر المدرسة.

وصل عبد الدايم إلى الحقول الشاسعة الممتلئة بأعواد البرسيم وأنواع الخضر، يتناهى إلى سمعه صوت الساقية التي يجرها الثور الأسود، وخرير المياه الذي ينساب إلى شقوق الأرض فيسير في طريق محدد الطرفين إلى الأمام فيسقي كل شبر في الأرض العفية.

رأى شبحا يقف، وظلاًّ يتحرك ويسكن، متأملا ساهيا عمن حوله، يسبح في ملكوت الله المثير، يتأمل عظمة الخالق وقدرتــه على صنع هذا الجمال المبهر، بعيدا عن المدرسة والشيخ حمــزة التي ألهبت عصاه قدميه، وكأنما أحس محمود أن أحدا ينظر إليه ويراقبه — وهو شارد النظرات هائما ينظر إلى الساقية– حدثت منه التفاتة فرأى عبد الدايم يتجه إليه في حذر وصمت، وقــع بصره عليه فأقلع مسرعاً وانتزع قدميه من الأرض التي يقــف عليها، كأنما لدغته حية أو دهمه عقرب، فرّ من أمامه كأنه لقي عفريتا أسود في ليلة ظلماء.

جرى واختفي عن ناظره، ولم يبد له أثر، حاول عبد الدايم أن يلاحقه ويجري خلفه ويمسك به، ولكنه عاد خائب الأمل صفر اليدين، رجع بخفي حنين، وبغير الوجه الذي كان عليــه منــذ لحظات يحدوه الأمل في الإمساك به، والعودة معه إلى المدرسة، ولم يعرف أي مكان ذهب إليه، أو أي طريــق ســلكه، أو أي جدار اختفي وراءه.

سار محمود في دراسته متعثرا كارها لعلوم الدراسة، يحضر بعض أوقات الدرس، ويهرب من معظمها، لم يهتم بالدراسة، فلم يحفظ القرآن الكريم، ولم يهتم بالإملاء وتحسين الخط، ولا بالحساب، ولا جدول الضرب، ولا القسمة المطولة، لم يكن يهتم بشيء من ذلك، فكان ترتيبه دائما في نهاية القائمة وآخر كشوف الناجحين، ولم يكن يبالي بهذه النتيجة، ولم ينشغل بها، فالأمر لديه سيان في أول القائمة أو ذيلها، نجح أو رسب، انتقل إلى الفرقة الأعلى أم ظل في السنة الدراسية أكثر من عام.

وقضى مدة الدراسة متعبا متبرما يكره المدرسة ويصب غضبه على المدرسين.

حاول الشيخ مصطفي أن يلحق ابنه محمود بالأزهر الشريف فهي أمنيته التي لا تعدلها أمنية أخرى أو تقوم مقامها، ولكن محمود رسب في اختبار القبول بالأزهر، وأوصدت دونه حلقات الدرس، ولم يتلق العلم عن شيوخه الذين يسمع عن مكانتهم العالية الشيخ مصطفي، ويود أن يكون ابنه محمود واحدا منهم أو شبيها بهم.

فهو متدين بطبعه ويكن كل الحب لمن ينتسب إلى الأزهر شيوخا وطلابا، كان يتمنى أن يرى ابنه محمودا يعلو المنبر شامخا

يبصّر الناس بأمور دينهم، ويحثهم علـــى التمســـك بالمبـــادئ الإسلامية والقيم الأخلاقية.

بات الشيخ مصطفي حائرا متألما متحسرا على مصـــير ابنـــه محمود، وقد ضاعت فرصته في الالتحاق بـــالأزهر، وملازمـــة زملائه الذين عايشوه في المدرسة.

لم ييأس الشيخ مصطفي من الفشل الذي أصاب ابنه محمود، لم يصب محمود وحده وإنما أصابه هو شخصيا وطعنه في صدره وأدمى قلبه، جهد في إلحاق أخيه الأصغر الشيخ فتحي بالأزهر ليحصل منه على الشهادة التي افتقدها ابنه الأكـــبر محمـــود، الشيخ فتحي وثاب الفكر، لامع القريحة، محب للدراسة والعلم، وكان يتطلع من زمن إلى اقتحام قلعة الأزهر وحصنها المنيـــع، يحب أن يطلق عليه لقب الشيخ رسميا، بعد أن ينال الشـــهادة العالية من إحدى كلياته.

كان الشيخ فتحي هو المصل الواقي من الآلام المبرحة الـــتي لحقت بأبيه من جراء محمود، الذي لم يبخل عليه والده بشـــيء من مال أو جهد أو وقت.

* * *

أنهى عبد الدايم دراسته في مدرسة تحفيظ القرآن الكـــريم، عند انتهاء الحرب العالمية الثانية، وتقدم كغـــيره مـــن ألـــوف الطلاب الذين يودون الالتحاق بالأزهر الشريف، فكانت منزلته السامية تحتل أفئدة المسلمين، وتمس شغاف قلـــوبهم في بقـــاع الأرض، وأهل الريف بصفة خاصة يكنون للأزهر كـــل حـــب وتقدير، ويتمنون في دخيلة نفوسهم أن يلتحق ابن من أبنـــائهم بالأزهر، ويتخرج فيه، ويطلق عليه اسم الشيخ العـــالم الـــذي يحمل كتاب الله ويعمل به، وينادي بتعاليم القرآن وشرعه بـــين الناس، فهم يعدون المميزين من أبنائهم منذ الصغر؛ ليصـــبحوا مجاورين بالأزهر، والعائلات الكبيرة هي التي تنذر واحدا مـــن أبنائها ليسلك طريقه في الأزهر، فيدخل الكتاب ويحفظ القرآن على يد شيخه الكفيف، ومساعده العريف،ويترك فلاحة الأرض لأخوته، ويقف شامخا على منبر الخطابة، يدعو جميع المصلين من أهل بلده للتقوى والصلاح، ويعلمهم أمور دينهم ودنياهم.

تقدم هذا العدد الوفير الذي يبلغ بضعة آلاف لينـــالوا شرف الالتحاق بالأزهر، فلم ينجح منهم ســـوى القليل الذي

لا يتجاوز الألف، معظمهم من أبناء الريف، الملتصقين بالأرض وفلاحتها، وزراعتها منذ نعومة أظفارهم، لا يعرفون شيئا عـــن طباع المدينة، وما يجري بين أهلها من جسارة، وطبـــع يغـــاير طباعهم التي ورثوها عن آبائهم، وألفوها في جيرانهـــم، لـــذلك تراهم بفطرتهم السليمة، وطبعهم الهادئ، لا يختلطون بالطلبـــة القاهريين، الذين عاشوا بعيدا عن الريف ولا يعرفـــون طبـــاع أهله، من زملائهم في الدرس أو الفصل.

عبد الدايم طالب مجد، يحضر الدرس ويواظب عليه، يواظب على استجماع الدرس الذي يلقيه شيوخه، ويفيد من دروسهم وشرحهم، ولكن الشيء المزعج حقا مصاحبته لثلاثة أصـــدقاء، زاملوه في الدراسة منذ السنة الأولى الابتدائية، وصعدوا معـــه حتى التحق معهم بالقسم الثانوي، ومدته خمس سنوات، كانوا الأربعة مشاغبين، لا يلتزمون بالهدوء أو الصمت، أو الإصـــغاء إلى الدرس ، حتى لا يفوتهم شرح الأستاذ ، ويســـتفيدوا مـــع زملائهم من الوقت الذي يقوم فيه بالشرح، بل يعملون علـــى ضياع وقت الدرس بمقاطعة الأستاذ أثناء الدرس، ليس بهـــدف الاستفادة والتساؤل عما يعن لهم من مسائل قد تكون غامضة،

لا يفهمون مغزاها، أو يصعب عليهم فحواها، ولكنهم يعملون على مواصلة الضحك بتهريجهم الصاخب المقيت، وإساءة الفهم الذي تسببه مناوشاتهم مع زملائهم، يطلقون الضحكات الصاخبة، ويتبادلون القفشات الطائرة، والنكات المستظرفة، فيقع زملاؤهم في قهقهات، وقد تكون النكتة فارغة رديئة، لا تبعث على الضحك؛ لشدة سخافتها، وكثرة تكرارها، مما جعلها غثة، ولكن استجابة الطلاب لهذا الجو الهابط استجابة لا يملكون لها دفعا، مما يغريهم على مزاولة القهقهة والضحك والابتسام، وقد يكون الشيخ المدرس مستغرقا في شرحه للدرس، يتناول مسألة نحوية، أو رأيا فقهيا، أو يتعرض لآية يفسرها، أو حديث نبوي يبين أهدافه ومراميه، فينبري واحد من هؤلاء الأربعة، عبد الدايم، وعبد الشكور، وتيسير، وعادل، يقاطعه بكلام غث تافه، يلوكه في فمه، ويمضغه بين أسنانه، ثم يلقيه في وجه الشيخ، كلام لا يمت بصلة للدرس أو موضوعه، فيضج زملاؤهم بالضحك، ويسترسلون في الصخب بصوت عال، يخرق طبلة الأذن، ويستمر الضحك وتعلو الصيحات والقهقهات، والمدرس مغيظ محنق، لا يملك من الأمر شيئا.

يستمر الدرس بهذه الكيفية من الهراء، وإضاعة الوقت دون أن يحصل زملاؤهم على ما جاءوا من أجله من استيعاب للدرس ودون أن يخرجوا منه بطائل، أو فائدة تذكر.

الطلاب الذين وفدوا من الريف، وتركوا الأقارب، والأهل، والجيران، ليتزودوا بالعلم، الذي صبغ بتلك الصبغة الأزهرية، وما يحمل في طياته من صلة بالدين والشريعة، لا يرون سوى التهريج الزائف، والصخب الفارغ، وضياع الفائدة.

كانت هذه السمات متمكنة في هذا الفصل بصفة خاصة، تعلن عن نفسها دون بقية الفصول الأخرى، التي تلتزم بالهدوء والاستجابة لسماع الدرس، فيستفيد الطلاب أيما إفادة، وينهلون منها ويستوعبونها حسب قدراتهم واستعداداتهم.

* * *

شيخ مسن قصير القامة، مدكوك الجسد، أشيب الشعر، يضع فوق أنفه منظارا من كثرة الاطلاع، يلقي درسه في مودة، فقد كان فيما سبق يقوم بالتدريس، في دولة الكويت، والناس هناك يجلونه ويقدرون مكانته، ويستشيرونه في جميع أمورهم، وما زال وهو في القاهرة يتردد عليه أهل الكويت، يزورنه ويرشفون من علمه الوفير، ومترلته الكبيرة.

كان هذا الشيخ يقوم بتدريس مادة الحديث لطلاب الصف الرابع الثانوي، يشرح الدرس ثم يعاود الشرح من جديد، باذلا أقصى جهده؛ ليدخل في أذهان الطلاب ما يريد من علم، يبذل كل سبل الإيضاح والبيان، وعندما يستمر في شـــرحه دون أن يوفر جهدا، يقاطعه واحد من هؤلاء الطلاب الأربعة بصـــوت نكير، كأنه نهيق يخرج من بطن حمار، يمزجه بألوان من الحشرجة المرذولة، والألفاظ الممجوجة، فيستشيط الرجل غضبا، ويضيق بما وصل مسامعه من هذا الطالب، الذي يتظاهر بصوت نكير، يبعث على الضحك، فيفزع الشيخ لهذا الهزل والصراخ، ومـــا يتبعه من ضحكات وقهقهات، لا تصدر إلا من أناس لم يتلقـــوا قسطا من التربية، أو ذرة من التعليم، ويتوقف عـــن مواصـــلة الدرس، ويستأنفه بعد أن يضرب كفا بكف، ويتمتم بعبـــارات هامسة لا تصل إلى آذان الطلاب الطويلة.

تكررت هذه الحادثة أكثر من مرة بهذا الصـــوت الـــنكير اللاهي، الذي اعتاد الزملاء على سماعه، دون أن تفجر هـــذه الدعابات شيئا من غيظ الطلاب؛ لفوات الحصة،وضياع الدرس دون فائدة، فمرة تسمع زقزقة العصافير تصـــدر مـــن أحـــد

الطلاب، أو هديل الحمام، أو صياح مؤذن الفجر، أو صهيل الخيل، أو نهيق الحمار، ومرة يصك أذنيك بكاء طفل أو نحيب رجل، أو صراخ امرأة والهة، فقدت زوجها وتيتم أطفالها، وغير ذلك على هذه الشاكلة.

كان المدرس المسن يظن في أول الأمر أن هذه الأصوات حقيقية، بجوار المعهد ويصل صداها داخل الفصل، ولكنه بدأ يتنبه إلى أن هذه الأصوات زائفة وتصدر من داخل الفصل، بفعل التلاميذ الأشقياء المشاغبين، هذه أصوات الحيوانات التي تبدو متنافرة لا تجتمع في مكان واحد، إلا إذا كانت حديقة الحيوان قد انتقلت من الجيزة إلى الدراسة، وملأت المكان بأصواتها غير المتناغمة، أو مستشفي القصر العيني يعاني فيه طفل أو رجل أو امرأة، أما أن يجتمع في مكان واحد حديقة حيوان ومستشفي لعلاج الأمراض فهذا من رابع المستحيلات، كان الشيخ الطيب المسن يدعو للطلاب بالهداية، ويسلم الأمر لله، لا حيلة له في مقاومة الشغب وضجيج الطلاب، ويستمر في درسه الذي لا يصغي إليه أحد بسمعه، أو يتشربه بحسه.

وعندما وصلت الأمور السيئة إلى هذا الحد من الابتذال وتكررت هذه الأفعال الكريهة، والصيحات المريبة، شعر بالألم

يفتت عظمه المتداعي، ويأكل صدره الضعيف الواهن، وارتفع ضغطه، ونكص عن تحمل هذه السخافات الشريرة اللعينة، التي لا يبغي الطلاب من ورائها سوى الإضحاك، وإبراز خفة الدم، ضاق بذلك الشيخ ولم يتحمل كل هـذا السـخف، انفجـر صارخا، وجرى خارج الفصل، شاعرا بالضيق الشـديد والألم الذي فاق كل وصف، وقد استبد به شعور بأن نفسه قد هانت عليه، وأن هذه الشرذمة من الطلاب الوقحين، أساءوا إليه وإلى مكانته ومترلته كل الإساءة، خرج مندفعا لا يرى أمامه شـيئا، مهرولا إلى حجرة المدرسين والمراقبين، وهو الذي يدين له كبار المسئولين والشيوخ بالأزهر، بالفضل والتقدير؛ لغزارة علمـه، وأستاذيته لهم، وهؤلاء التلاميذ يسخرون منه ومن طريقتـه في الشرح، ويتلاعبون أمامـه بأيـديهم وأجسـامهم، وعيـوهم وحواجبهم، وحركات رؤوسهم، وتمايل أكتـافهم، لم يتحمـل الشيخ هذه السخرية المزرية، التي قد أطاحت بهيبته، مجموعة من الصبية الأوغاد جاء بهم آباؤهم الطيبون ليتلقوا تعليما دينيـا، ويجد فيهم الناس مثالا للخير واحتراما للكبير، وخاصة إذا أخذ أساتذهم على أنفسهم أن يزودوهم بالعلم والخلق الكريم.

خرج من الفصل مهرولا حزينا، يكاد يبكي، وبكاء رجل مسن يحطم القلب، وينزع القسوة من الفؤاد، لقد ناله التلاميذ بألفاظهم، ووطئوه بألسنتهم، لم يتصور ذلك ولم يحدث له من قبل أن شعر بكل هذا الامتهان لكرامته، وما وصل إلى سمعه من بذاءة التلاميذ وسخف أقوالهم.

وأما ما حدث من الطلاب للشيخ فقد كان يجري بينهم كشيء اعتادوا عليه، وألفوه، فلم يتوقفوا عنده، ولم يبالوا بما حدث له في الأمس، من تحطيم لكبريائه، وتهوين من شخصيته، فهو هذر وصخب يعمل على إضاعة الوقت، ونسوا كل شيء حدث منهم لشيخهم الكبير المسن.

وعلى العكس من هذا الشيخ الهادئ الطبع،الذي يتعامل مع تلاميذه بحنو أبوي، وحميمية كبيرة، أستاذ آخر في التفسير يخشاه الطلاب، ويعملون له ألف حساب، لقوة في الشخصية وغزارة في العلم، والسيطرة على الطلاب سيطرة تامة، فلا يتفوه طالب بعبارة خارجة أو لفظة نابية، فعرف الطلاب طريقته في الدرس وأسلوبه في الشرح، فلم يحاول أحدهم أن يكون مستظرفا، فإذا استظرف قابله بوابل من السخرية والهزء، فيكف الطالب دون

رجعة إلى ما صدر منه، كان يهابه الطلاب، ويحملون له كـــل الاحترام، ويقدرون مكانته من علم وشخصية، فهـــو بحـــر في التفسير، محيط بآراء المفسرين ومدارسهم، ومشـــاربهم، ســـهل الأسلوب، واضح التفكير، يتخير العبارة الملائمة فيصل معناهـــا إلى القلوب، فتستقر في شغافها.

هذه ميزات واضحة تعد كافية لينصاع لها تلاميذ المعهـــد الديني، ويقدروها حق قدرها، فتدفعهم أن يلوذوا بالصـــمت، ويبتعدوا عن الهرج والمرج، إلا أن شيئا من ذلك لم يكن هـــو السبب الحقيقي، للإنصات لرأي هذا الشيخ ومعرفـــة وجهـــة نظره في كل ما يعن له من أمور، لم يكن هذا كله داعيا للصمت أو الالتزام بالهدوء في درس التفسير، ولكن السبب الحقيقي في استماع رأي الشيخ والأخذ بمـــا يقـــول دون معارضـــته، أو الدخول معه في مهاترات لا تفيد، أو هذر يأكل وقت الدرس، الاحترام الشديد والرهبة من غضبته الـــتي يبثهـــا في نفـــوس الطلاب، فتنخلع لها صدورهم، هي قوة شخصيته، إذا انفـــتح الباب ودخل الفصل، واقتحم الدرس، التزم الطلاب بالـــهدوء والاتزان، ودفعهم ذلك إلى الانصراف عن كل لهـــو وهـــزل،

وران عليهم سكون كامل، وصمت حقيقي يلزمون به أنفسهم وتصرفاتهم.

دخل الشيخ الحديدي الفصل وهو ثائر لكرامة زميله التي أهينت من صبية صغار، لا يدركون قيمة هذا الشيخ الطاعن في السن، وهزءوا به وتلاعبوا بمترلته، فلقن التلاميذ درسا قاسيا في الخلق القويم والسلوك الحميد، وما يجب عليهم من احترام كفيل بأساتذتهم، وأن يتعاملوا معهم كما يتعامل الأبناء مع الآباء، فالأستاذ هو الذي يخلق للتلميذ شخصيته التي يواجه بها المجتمع، شخصيته التي تتكون بما يلقيه عليهم من علم ومعرفة وثقافة، بدلا من هذا الجهل الذي يرين على أفئدتهم، ويغطي على عقولهم، فالأستاذ هو الذي يزيل الجهل عن الطالب، ويبعد عنه شبح الغفلة، ويجعل منه شخصا نافعا لأمته ووطنه.

قال هذا الكلام فسكت الجميع دون أن ينطق واحد من الطلاب بكلمة، أو يراجعه في عبارة، الطلاب جميعا باختلاف مشاربهم، وتباين تربيتهم ومسقط رأسهم، سواء كانوا من أهل القاهرة أو وافدين إليها من الريف المصري.

عبد الدايم ومن معه من مجموعة الشباب المشاغبين التي تنسب لنفسها الأخذ بأسباب التمدن، ونصاعة التنوير، ونالوا

قسطا قليلا من الانفتاح على المدنية الباهرة، كما كانوا يعتقدون، وتمتلئ به نفوسهم عن اقتناع تام، فهم يميلون إلى الانفراد بأنفسهم عن زملائهم، والبعد عن مخالطتهم، فالريف في نظرهم المحدودة القاصرة، مجرد أرض سبخة، وزرائب ملوثة، وترع تنفق فيها الحيوانات، وبرك تغزوها الآفات والحشرات، هؤلاء الزملاء يعيشون في الريف بجوار حظائر الماشية، مجاورين لمزاود البقر والخراف، ينامون في الشتاء على ظهور الأفران، وإذا عادوا بعد قضاء يوم حافل بالعمل في الحقول، جلسوا على المصاطب الرابضة أمام دورهم، يتسامرون ويقضون أوقاتهم في الثرثرة والقيل والقال مما جرى في يومهم من أحداث تافهة بين الأهل والجيران، وفي الليل بعد صلاة المغرب يمكثون على أسطح البيوت في الصيف يتنسمون دفقات الهواء الساكن، الذي تدفعه ريح الشمال في ليالي الصيف، ليس بينهم وبين السماء سوى القمر الذي يختبئ ضوؤه خلف سحابة عابرة، ثم يظهر من جديد بعد أن يخرج من إطار السحابة التي غشيته، ينامون فوق حصير بالٍ تترك أعواده أثرا على ضلوعهم، وعلامات في أجسامهم، أو ينعمون بالاستلقاء على الأرض

فتزحف عليهم الهوام، وتعبث بهم الحشرات، لا يستطيعون لهـا دفعا أو عنها بعدا، هؤلاء الريفيون الذين يقيمـون في القـرى والنجوع، ويعيشون بين روث الماشية، وبعر الإبـل، وخـراء الأطفال، ولا يسمعون سوى خوار العجول، وغثاء الخـراف، ومأمأة الماعز، وأزيز السواقي، كيف يمكنهم أن يجهروا برفـع أصواقم، أو يحتدوا في مناقشة مع زملائهم الذين يقيمـون في القاهرة، وأتوا من أحياء باب الشعرية والدراسة، والمغـربلين، والدرب الأحمر، وباب الوزير، أو وفدوا مـن بـاب البحـر، وشبرا، وبولاق، وأبو العلا، هؤلاء الطلاب الريفيـون الـذين يتسمون بالوداعة، وطواعية الخلق، وطبعوا على القول اللـين، يلتزمون بالأدب الجم، والاحترام المتأصل، لكل من هو أكـبر سـنا وأوفر تجربة، ولو كان أميـا يجهـل القـراءة، ولا يحسن الكتابة، ولم يتلق قسطا من التعليم.

غير أن التلاميذ الذين يقطنون القاهرة عاصمة مصر، ويرتادون السينما، ويشاهدون أفلاما مصرية، أو أجنبية: أمريكية، إنجليزية، إيطالية، ويمرون على دور العرض الصيفية، ويتسكعون علـى أبواب سينما ركس، واستراند بوسط البلد، أو الجندول بشبرا،

أو الأمير بخلوصي، أو النصر بشارع إبراهيم باشا، كانوا يعتبرون أنفسهم خلقوا من طينة أخرى غير تلك الطينة التي صاغت أبناء الريف، هم متفتحون، عركوا الدنيا، وخبروا أحوالها، واخترقوا دروبها وأزقتها، وحدث لهم تطور وتقدم، خلاف زملائهم الذين تقوقعوا داخل قراهم يلفهم ظلام الليل،، ولا يسمعون سوى القعقعة التي تحدثها السواقي، ترفع الماء من باطن الأرض، وتقذف بها داخل المجرى الذي حفرته مياه الأمطار ومعول الفلاح؛ لري أرضه، وسقي زرعه، لا يعرفون من حياة زملائهم القاهريين شيئا، وما هم فيه من تبجح وخروج على المعايير الأخلاقية الكريمة، التي شب عليها أهل الريف وأبناء القرية.

طغى الفرح على عبد الدايم، وغمرته سعادة كبيرة، وأشرقت الدنيا في وجهه حين حصل على الثانوية الأزهرية، بعد هذه الفوضى الشاملة التي صاحبته طيلة السنوات الخمس، التي قضاها في المرحلة الثانوية، يدرس علوما معظمها لا يتصل بالحياة التي عاشها في المدينة، وما فيها من تطور وتغير، درس المنطق، والتوحيد والإلهيات وجزأين من التفسير في كل عام

دراسي، وأحاديث مختارة من صحيح البخاري، خلاف النحـــو الذي درس فيه ألفية ابن مالك، وشرح ابن عقيـــل، وأوضـــح المسالك، وغير ذلك من العلوم الحديثة التي أخذ الأزهر بنصيب منها، وقرره على طلابه.

فرح عبد الدايم بحصوله على الشهادة الثانوية الأزهرية بهذا المجموع الكبير، الذي يؤهله لاقتحام أية كلية في الجامع الأزهر، وهو ليس جامعة بالمعنى السائد المفهوم، مثل جامعة القـــاهرة، وعين شمس، والإسكندرية، بكلياتها الوفيرة، وتعدد مـــدرجاتها وقاعات الدرس بها، وملاعبها من كل فن رياضي، يؤمه الطلاب لإشباع هواياتهم، وتلبية رغباتهم.

فالجامع الأزهر قبل أن يتحول إلى جامعة كان يحتوي على ثلاث كليات فقط، هي: أصول الـــدين، والشـــريعة، واللغـــة العربية، يجاور بعضها بعضا في حي الأزهر، تلك المنطقة الشعبية الدينية المحافظة على تقاليدها: الحسين، والأزهـــر، والدراســـة، والغورية، والدرب الأحمر.

أحس عبد الدايم أنه امتلأ شعورا بالزهو والفخر والاعتزاز، وأنه حصل على شهادة كبيرة اتسعت لها مناحي الحياة، وأرجاء

الدنيا، وكليات الأزهر الثلاث، فمجموعه الوفير الذي حصل عليه يمكنه من دخول كل واحدة منها دون حواجز أو عوائق، ينتقل من المرحلة الثانوية إلى المرحلة الجامعية، مرحلة أعلى شأنا، وأرفع قيمة، ويلتحق بكلية كبيرة بدلا من المعهد الثانوي، سينتقل إلى مكان أرحب ثقافة، وألصق بالدراسة الجادة المتسعة المتعمقة، التي ليس لها نظير في المعهد الثانوي المتواضع، أضف إلى ذلك أنها كلية جامعية يحاضر فيها أساتذة كبار، مشهود لهم بغزارة العلم، وقوة الشخصية، وكثرة النتاج الفكري والديني.

عبد الدايم له أصدقاء قليلون يعدون على الأصابع، اختارهم من بين زملاء الصف، يتجاوبون معه، ويرتشفون ثقافتهم من معين واحد وبيئة متقاربة، تراهم معا غير متفرقين، يجتمعون في مكان واحد، يسيرون معا، ويجلسون على المقهى سويا، وفي حجرة الدرس متجاورين، كل اثنين في مقعدين، ولشدة التصاقهم ورؤيتهم معا؛ اقترنت أسماؤهم في أذهان زملائهم، لا ينفصل واحد منهم عن الآخر، كأنهم فرد واحد لا يصلح للتجزئة، كتلة واحدة متماسكة متداخلة لا تنفصل، يتشبث بعضها ببعض، كأنها قطعة من الطين، أضحت حجرا أو صخرة من العسير

تفتيتها، هم أربعة أشخاص متلائمين، جماعة واحدة، هذه الجماعة تفرقت بيد الأيام الخشنة، التي عبثت بهذه الفئة من الطلاب، فقد ابتعد أحدهم والتحق بدار العلوم، وبقي الثلاثة الآخرون بكلية اللغة العربية.

هذه الجماعة التي لا تتجاوز الأشخاص الأربعة تتفاوت أعمارهم بين التاسعة عشرة والعشرين، بعضهم يمارس هوايات رياضية مثل كرة القدم، والسلة، والمصارعة، شأن تلاميذ المدارس المدنية الأخرى، الذين ينعمون بممارسة الرياضة بشتى ألوانها، وهو مشغوفون بها في هذه المرحلة من العمر؛ لبناء أبدانهم، والتسامي بنفوسهم، والارتفاع بشأن أرواحهم المعنوية وإظهار مهاراتهم، وإبداء قدراتهم.

عبد الدايم يقطن في أول شبرا، بالقرب من جزيرة بدران، وأحد زملائه يقطن بالقرب منه، ويسبقه عاما دراسيا، وأحد الأساتذة المكفوفين بالمعهد الأزهري يدرس مادة التفسير، فوجد في هذا الطالب معينا له في غدوه ورواحه، فهو البغية التي ينشدها، وكان قريبا من مسكنه، وحال أسرته شديد التواضع، ويمكنه الاعتماد عليه في سيره من المترل إلى المعهد، ومن المعهد

إلى المترل، يرافقه مثل عكاز يعتمد عليه في شتى أمـــوره، مـــن قراءة للدرس، واصطحابه للفصل، والبقاء معه في الدرس، إذا تيسر ذلك وكانت ظروفه مواتية للحضور معه، يســحبه مـــن يديه، ويستقل معه الترام من الأزهر إلى العتبة الخضراء، ويبدل المواصلة بترام آخر يسير به متجها إلى أقرب محطة لبيته، فيترل الطالب مع أستاذه يتحدثان في شأن من شـئون الدراســة، أو الأساتذة، أو الطلاب، أو ما يعن للبيت من أمور، أو ما يجــري في الشارع من أحوال، يتحدثان في أمر ما يقطعان به الوقـــت، ويزجيان الفراغ والمعيشة الرتيبة، حتى يصل الأستاذ إلى مترله، فيتركه الطالب على أمل أن يعود إليه بعد صلاة العصر، وأخذ قسط من الراحة؛ ليستأنف معه قراءة درس الغد.

الأستاذ الكفيف يقوم بتدريس مادة التفسير لطلبة المعهد من السنة الثالثة الثانوية، ضخم الجثة يقترب طوله من المترين، كبير الوجه مستديره، غليظ القسمات، متداخل الملامح، سمــين إلى حد ما، تبدو عليه علامات الإفراط في الطعــام، فهــو ممتلــئ الجسم، غليظ الصوت، حاد النبرات، إذا شرح لتلاميذه درسا في التفسير، لا يرتاحون لطريقته، وسماع صوته، ولا يستسيغون

شرحه في تفسـير آيات القرآن ، لم يكن محبوبا من الطلاب ، لا بمادته العلمية، ولا بهندامه المبعثر الذي لا يعـرف للأناقـة طريقا، فهيئته يغلب عليها طابع الإهمال والتنافر.

وفي المعهد مدرس آخر يقوم بتدريس التفسير لفصل ثان من السنة الدراسية نفسها، تبدو عليه الوداعة،محبوب عند الطلاب؛ لهيئته الحسنة، وسمته المريح، وصوته العذب، وطباعـه اللينـة، يتعامل مع طلابه كما يتعامل الوالد مع أبنائه، يأخذهم بالرأفة، ويتناقش معهم في لين ويسر، إذا عرضت عليه مشـكلة مـن مشاكل الطلاب شاركهم فيها، وعمل على حلها، أحبه الطلاب وتقربوا إليه كما كان يتقرب هو إليهم بمعروفه، وتبصره للأمور وحسن إدراكه لها، يفتح بيته لزيارة أبنائه الطلاب له، يتجاذبون معه أطراف الحديث في أمور معيشتهم، ووضع أسرهم، ومـا يعتريهم من أحوال معيشية، واجتماعية، وقد يرفعون الكلفـة بينه وبينهم، فيطرقون الحديث عن أمورهم المادية، وما يعانونـه من ضنك وعنت، وفي كل الأحوال لم يجد منهم إلا الرضا بمـا قسم الله لهم، ويجد الطلاب منه صدرا حنونا، وحضـنا أبويـا دافقا.

حدد لزيارتهم يوم الخميس من كل أسبوع، يأتون إليه سعداء بملاقاة شيخهم والجلوس معه بعض الوقت، فإذا طرق أحد الطلاب باب منزله فتح له، وهش في وجهه وأحسن استقباله، وإذا اكتمل عددهم تجاذب معهم أطراف الحديث، وأشركوه فيما يتراءى لهم من مشكلات حياتهم، وما يستعصي عليهم من أعباء الحياة، ينتقلون من موضوع في التفسير إلى موضوع في الحديث النبوي، أو شأن آخر من شئون الحياة التي تصادفهم، وقد تنغص عليهم معيشتهم، وكان الشيخ يشعر بمسئوليته تجاههم، فهم تركوا قراهم واغتربوا في القاهرة بعيدا عن أسرهم، ليس لهم كفيل بها، ولا معين يشد من عزمهم، ويقف بجوارهم في مواجهة الصعاب التي تتراءى لهم، ولا يجدون لها حلا، ولكنهم يجدون لدى أستاذهم الحنو عليهم، واللين في مشاركتهم وما يصادفهم من متاعب الحياة.

سمع الطلاب همسا صامتا يجري بينهم، ثم تحول هذا الهمس إلى صخب وضجيج، يتنقل من طالب إلى طالب، ثم أصبح يسري من مجموعة إلى مجموعة أخرى، يسري الحديث الصامت ويندلع كما تندلع شرارة النار في الحطب الجاف، فتنتشر بين أعواده، حتى تصبح نارا متأججة، لم يأن لها أن تخمد.

كان مصدر هذا الهمس الذي تحول إلى صخب، هو ذلك الطالب المرافق للشيخ الكفيف، الذي يتنقل معه من منزله إلى المعهد، هذا الصخب الذي تمدد في سرعة جارفة مدمرة، لا يقف أمامها شيء يصدها أو يمنعها من النفاذ إلى آذان الطلاب ورسوخها في أذهانهم، إشاعة قوية، تلطخ ثوب مدرس التفسير المبصر، وقد عرف بين طلابه بالهدوء والوقار، وسمعته الطيبة النقية، إذا تخلف عن زيارته يوم الخميس أحد الطلاب سأل عن أحواله، وماذا ألَمَّ به، ولِمَ تخلف عن الزيارة؟ حتى أصبح بينه وبين تلاميذه أواصر وثيقة من المودة، ربطت بينه وبينهم، لا تنفصم عراها.

زين الفيومي الذي يقود أستاذ التفسير كان مرافقا له، وهو يهم بالذهاب إلى منزله، التقى بهما الشيخ المبصر، كلاهما المبصر والكفيف يقوم بتدريس مادة التفسير، يجلس بالقرب منهما الفيومي، ويسمع ما يدور بين الشيخين من حوار، أثنى الشيخ المبصر على زميله الشيخ الكفيف، وامتد بثنائه إلى الطالب المرافق له، وبينما هو يثني على زين الفيومي، إذا بيد الشيخ المبصر تمتد إلى جسده، وتعبث به، وتمر عليه في رفق، لم

يستطع أن يسيطر على حركاته ومشاعره وغرائــزه، فهــبط بأصابع يديه المتشنجة المرتعشة المترددة من صدر الفتى، إلى بطنه وتستقر بين فخذيه، تصعد وتهبط، ثم تتوقف عند عضو الفــتى، يفك أزرار سرواله ويدس يده بداخله، ويستمر في العبث به، لم يشعر الشيخ الكفيف بشيء مما يجري حوله، ولا مــا دار بــين زميله وقائده، فهو لم ير شيئا، ولم يسمع صوتا يتنهد من أحدهما ينبهه لهذا الفعل الذي وقع بجواره، وهو لا يـــدري، انفرطــت حبات العرق على جبين زين الفيومي، حبات عرق بارد سالت من جبهته، وتناثرت على وجهه، حاول أن يمسك أنفاسه حــتى لا يشعر شيخه الذي يجاوره بشيء، وفي الطريق سرد الطالــب لشيخه الكفيف كل ما حدث معه من الشيخ المبصر في أثنــاء جلوسه، والشيخ عن يساره، وزين الفيومي عن يمينه، حيــث التفت إليه يحدق في وجهه، يتفرس في عينه، ثم امتدت يده تعبث بعضوه دون حياء أو وجل، يمارس معه هذا الفعل الفاضح المشين.

حمل الشيخ الكفيف هذه القصة التي رواها له تلميذه القائد الملازم له في ذهابه وإيابه، وروج لها واستثمرها تماما، فنقلــها لزملائه الأساتذة، كما قام الطالب من جهته بعرض هذه الواقعة

على زملائه الطلاب الذين استقبلوا الخبر غير مصدقين له، وسرعان ما انتشر الخبر بين جدران المعهد الديني، وصار له دوي عظيم داخل المبنى الهادئ، ورن صداه في أرجائه كما يفعل الحجر داخل البحيرة الساكنة فيبدد سكونها، ويشتت هدوءها.

هل يصدقون الطالب وهم لا يعرفون عن أستاذهم منكرا يسيء إليه، أو يكذبونه لما عرف بين الشيخين من نفرة وعدم انسجام؛ إن رضى الطلاب عن أستاذ منهما وسخطهم على الآخر كان دافعا لهذه المقولة، ربما تكون وشاية مغرضة، ومكيدة فجة، يعلنها الشيخ الكفيف على الشيخ المبصر؛ يبغي من ورائها الانتقام منه؛ لأنه أقرب إلى نفوس الطلاب، وأشد التصاقا بهم، فهم يتحلقون حوله إذا بدأ الدرس، ويتجمهرون عليه إذا سار في الطريق، منجذبين إليه كما ينجذب الأتباع حول القطب.

تذبذب الطلاب ما بين القولين، نوع يأخذ الأمر بحذافيره دون مناقشة، فيصدقه، ونوع آخر لا يصدق ما قيل، فلم يعرفوا عن أستاذهم إلا الخلق الفاضل، وحسن المعاملة.

هذه الحادثة سرت بين طلاب المعهد وشغلت أذهانهم، فاستعاذوا بالله منها، ومن شر ما تخبئه الأيام لهم، وما يخفيه القدر من أحداث. ودارت هذه القصة على ألسنتهم كما تدور

الرحى فتسحق ما بين شقيها، وازدادت في أحـــاديثهم حـــتى أحاطت بهم، يتحدثون بها في مجالســـهم، وفي فصـــولهم، بـــين الدروس ووقت الراحة، أصبحت شغلهم الشاغل، يلوكونها في كل مكان، خارج حجرة الدراسة، وفي ممرات الفصول، وشملت أحاديثهم داخل المعهد وخارجه، لا تجد طالبين يختليان بنفسيهما حتى تقفز إلى ذهنهما هذه الواقعة، فلاشك أنهما يخوضان في هذا الحديث، يدور الموضوع ويلف كالساقية، تخرج مـــا في بـــاطن الأرض وتقذفه خارجها، ثم يعود الحديث عنه مرة أخرى، هذه الحادثة بدأت داخل جدران المعهد، ولكنها لم تستقر فيه كمـــا كان متوهما، بل تعدت أسواره، وتشعبت وتنـــاثرت خارجـــه، وتطاير شررها، واندلع لهيبها بين الأساتذة، فأخذوا يحرصـــون على سمعتهم أن تتناولها الألسن، التي تبطن ما تحتها مـــن شـــر وفساد، فأخذوا يبتعدون تلقائيا عن الطلاب، يبغون السلامة من كيدهم والنجاة من بأسهم، تراهم متجهمي الملامح، عابســـي الوجوه، ترتسم عليها ملامح الجدية، بعد أن كانوا يتصـــرفون بطبيعتهم، مبتسمين منشرحين، فلا يتبادلون حديثا مع الطلاب إلا في أضيق الحدود، إذا استوقف أحدهم أستاذا يعرض عليـــه

مسألة علمية، يجيبه في اقتضاب ثم يولى وجهه مبتعدا عنه، يفــر بنفسه خوفا على سمعته وما قد يصيبها من رذاذ، يبغي السلامة لنفسه والحفاظ على دينه.

انتابت الحيرة عبد الدايم، لم يصدق أن زميلــه وجــاره في شبرا، الذي عرف بين الزملاء بدماثة الخلق، وهــدوء الطبــع، ورقة الحاشية، الذي لا تكاد تسمع صوته بجوار زملائــه مــن الطلاب الذين يتصفون بالبجاحة وســوء المســلك، وهــوج التصرف، لم يصدق عبد الدايم أن زميله زين الفيومي هو نفسه مصدر الإشاعة، وأساس الفرية، وهو الذي ألقى بشــرارها في الهشيم، فاندلعت نيرانها متأججة، وأتت على كل مــا يعرفــه الطلاب من خلق الشيوخ، الذين يتسمون بالفضل، ولا نــرى منهم إلا كل خير، لا يجري في طبعهم شــيء ســوى الهــدوء والركون، والبعد عن كل ما يشــين، رأينا فيهم حنان الأبوة، ودفقة الأستاذية، ونصائح الأخ الأكبر، رأينا احترام الناس لهم، وما يكنون حيالهم من تقدير وإكبار.

لقد أصبحت يا زين موضع تساؤل بــين الــزملاء، كلــهم يسأل، يريد معرفة الأمر وحقيقته، سألوك أكثر من مرة، وكل مرة تقول نفس الإجابة، ولكن الطلاب دائما يحبون الاستفسار عن شيء هم قد عرفوا فحواه، وخبروا قصته، ولكنهم يحبــون الاستزادة منه، لقد مللتَ هذه الأسئلة، ولا تستطيع التــهرب

من الإجابة، فإن التزمتَ بالصمت ظنوا بك الظنون، وأيقنوا أنك أطلقت على الشيخ المبصر إشاعة كاذبة، لا يعرف مدى صوابها، وأصبحت بين زملائك شخصا لا يوثق به، ولا يعتمد أحد على كلمته بعد ذلك أبدا، كان يجب أن تغض عن هذا الحديث ولا تردده من أصله، مالك أنت والشيخ المبصر والشيخ الكفيف- وكأن عبد الدايم يتحدث بلسان زين الفيومي – فكل علاقتي بالشيخ الكفيف أنني أساعده في مسراه بين المترل والعمل، والعمل والمترل، لأنه لا يوجد أحد سواي يقوم بهذه المهمة، هذه هي كل علاقتي به ولا شيء أكثر من هذا، أما أن يسألني الطلاب صباحا حين أسير في حوش المعهد، أو صاعدا إلى حجرة الدراسة، أو في الاستراحة بين الحصص، أو في الطريق إلى المترل، يسألونني إذا وجدوا الفرصة متاحة لي، عندما لا يكون معي الشيخ الكفيف، إن هذا إرهاق شديد ينتظرني في كل وقت، ولست أنا في حاجة إلى كل هذا العناء، يكفيني ما ألاقيه من عناء مصاحبتي للشيخ الكفيف صباحا للذهاب به إلى المعهد، وفي العصر عند الانتهاء من الدروس التي يلقيها الشيخ في المعهد، وليت الأمر يقتصر على العمل في الصباح، فعملي بالمساء أهم عندي من العمل صباحا، فأنا موظف بالمكافأة في جمعية الشبان المسيحية بشارع إبراهيم باشا، وساعدني على الحصول على هذه الوظيفة أديب أفندي، الذي

له علاقة ببعض المسئولين في الجمعية، شرح لهم حالة أسرتي المادية، وأنني شخص فقير أعول عائلة كبيرة، وتعتمد على دخلي المتواضع اعتمادا كليا، يأتي بعضه من معاش والدي الذي كان يعمل في إدارة السكة الحديد، وبعضه الآخر مما ينفحني به الشيخ الكفيف في أول كل شهر، عندما يقبض مرتبه من الأزهر، والمعاش وما يمنحني به الشيخ الكفيف لا يكاد يسد رمقنا، أنا وأربعة من الأخوة الذين يلتحقون بالمدارس في مراحلها المختلفة، وعندما كلمت أمي جارنا أديب أفندي، وأبدت له حالتنا البائسة، وأن جميع ما نحصل عليه لا يكاد يكفي الإنفاق على هذه الأسرة الكبيرة، ((وأنت يا أديب أفندي تعرف البئر وغطاه، فالبئر نضب ماؤه ونشف، ولم ترشح جدرانه بالبلل، ولم تجد فيه إلا رجع الصدى))، فتطوع الرجل وصنع للأسرة معروفا، وعينت بالمكافأة نظير أن أقوم بمتطلبات البوفيه، وأقدم الشاي، والقهوة، والمشروبات لأعضاء النادي، حاجة تساعد على المعيشة، وتسد رمق الأخوة، فأفواههم مفتوحة لا تغلق أبدا، وتلتهم كل ما تجده أمامها من طعام، إن الاسترسال في تذكر هذه الأمور يقلقني أشد القلق، ويطير النوم من عيني، رغم الجهد الذي أبذله في يومي صباحا في المعهد، ومساء في النادي، أحب أن أغفو ولو ساعة واحدة أقوم بعدها أجدد نشاطي ويزول إرهاقي.

غفت عينه وانطبقت أجفانه وتخدر جسده، وراح في دنيا غير الدنيا.

أهداه أحد أعضاء النادي، الذي كان يحدثه كثيرا عندما يقدم له طلبه من شاي أوقهوة أو مياه غازية، أهداه صليبا أنيقا لامعا، وضعه الزبون على عنقه، وألبسه إياه، فرح به عندما رأى انعكاس ضوء القمر الشاحب على معدنه الأبيض، وفي صباح اليوم التالي ذهب إلى المعهد، وأخفي الصليب تحت ياقة قميصه، إذا نظر إليه أحد لم ير إلا شريطا أزرقا يحيط برقبته، ويتدلى على صدره، لسوء حظه رآه أحد الزملاء عرضا، وعلى غفلة منه يبرز الصليب من تحت القميص، فوشي بما رأى عند مراقب المعهد الذي يشرف عليه، انخلعت قلوب الأساتذة لهذا الفعل الغريب، وامتلأت صدورهم لوعة وأسى، زعموا أنه دخل الديانة المسيحية، واعتنق النصرانية، وهذا أمر جلل لا يليق بطالب ينتسب للأزهر الشريف، أليست النصرانية دينا سماويا لا غبار عليه؟ وبشر بها المسيح عيسى بن مريم، والمسلمون يؤمنون بالمسيح كما يؤمنون ببقية الأنبياء، فكلهم أنبياء الله، المسلم والمسيحي يتفاعلان في الملمات ويصبحان شخصا واحدا، يتبادلان الأمكنة، والقس سرجيوس، كما سمعنا من الناس، كان يقف على منبر الأزهر خطيبا يدافع عن الثورة، ويستشهد بآيات من القرآن الكريم.

نادته أمه فنفض ما برأسه من أحلام، وما طرأ عليها من رؤى، استيقظ يا زين كفاك نوما، إن الشيخ الكفيف أرسل في طلبك لتقرأ له درس الغد، وإنه في انتظارك، اللهم اجعله خيرا، هـذه أضغاث أحلام تلح عليّ من وقت لآخر بصور مختلفة، تلازمني كثيرا، ولا أستطيع التخلص منها أو من غيرها.

في اليوم التالي التقى به عبد الدايم في حوش المعهد الفسيح، سأله عن تلك الواقعة التي يتحدث عنها المعهـد، بينـه وبـين مدرس التفسير، فأنت طرف فيها، وعملت على ذيوعها بـين جدران المعهد، لم تبد على وجهه المفاجأة، اعتـرف بصـحتها مؤكدا ما سمعه الطلاب، لم ينكر الحادثة، ردد ما انتشـر بـين الطلاب، كان هادئ الطبع، رابط الجأش، وهو يتحدث كأنها واقعة لا شك فيها ولا لبس، وأنـا لا أسـتطيع إنكارهـا أو جحدها، وكل ما سمعته عن هذه الواقعة فهو حق لا ريب فيه.

زين يؤكد ما حدث، ويذكره تفصيلا، فمدرس التفسـير المبصر شذ عن مسلك الناس الطبيعيين، وقد سلك معي طريقا فضح به نفسه، وفضح الأزهر، عمل لا يقره شرع ولا ديـن، ولا خلق كريم، وقد علمت أنه زوج ورب أسرة سعيد، ولكن الطلاب لم يأخذوا الأمر كما هو على علاته،بل قلبوا الحادثـة على شتى الوجوه، وضربوا بها في كل اتجاه.

أليس من الجائز أن التنافس بين الشيخين لعب دورا هاما في هذه المسألة، وإشاعتها بين ربوع الأزهر طلابا وأساتذة؟ الشيخان المبصر والكفيف كلاهما يقوم بتدريس المادة التي يقوم بتدريسها الشيخ الآخر، فكلاهما أستاذ لمادة واحدة، يقومان بتفسير آيات القرآن الكريم، فالتنافس قد بلغ مداه، ولكل منهما طريقته المختلفة في الشرح وجذب انتباه الطلاب، وترسيخ المعلومة في أذهانهم.

أليس من الممكن أن الأستاذ الكفيف قد أكل الحقد قلبه فشنع على الأستاذ المبصر؛ لأن الطلاب التفوا حوله بينما انصرفوا عن شيخك الكفيف؟ هل لقربهم من زميله الشيخ المبصر ونفورهم عنه؟ هل لتشبثهم بالشيخ المبصر لعلمه الغزير وطبعه الكريم، فشعر نحوه بالحسد والغيظ، حتى تشبعت نفسه بحب الانتقام منه، والتشهير به، فأوعز للطالب الذي يقوده في الطريق على هذه المكيدة، بأن يشهر به ويختلق هذه الواقعة، يلوكها ويرددها بين زملائه، بالبسط والشرح والتكرار، حتى ترسخ في الأذهان، فلا يستطيع غريمه لها دفعا، أو يتخلص مما علق به، أو التحم بسيرته فلا ينفك عنها، ويلحقه العار أبد الدهر، في مجتمع متدين أزهري يتمسك بمبادئ الدين؟

ارتفعت الهمسات الخافتة، وعلت الضجة الصامتة، حتى بلغت مسامع الشيخ المتهم نفسه، وأحاطت به من كل جانب،

فأقلقته وعذبته وجفا النوم عينيه، أصبح في موقف عسير ينضح بالحرج والخجل، شائك ينذر بالخطر الداهم، فالمجتمع الأزهري لا يرحم خاصة في أمر من أمور الدين، وهو مهدد بالعزلة من زملائه الأساتذة، وأبنائه الطلاب.

تحاشاه الطلاب، انصرفوا عنه، يواجهونه وكأنهم لا يرونه أمامهم، بعد أن كانوا يتحلقون حوله، يناقشونه فيما دار من حديث وانقطع بسبب انتهاء الدرس، أصبحوا لا يعرفونه ولا يقفون معه، ولا يلتفون حوله كما كان عهده بهم من قبل، انفضوا عنه، وهربوا منه إذا صادفوه في الطريق، أو فناء المعهد، أو صاعدا أو هابطا من الدرج، تظاهروا أنهم لا يرونه، ويعبرون طريقهم دون الالتفات نحوه أو إلقاء السلام عليه.

شعر أنه أصبح منفردا وحيدا بائسا، يتهامس عليه زملاؤه وتلاميذه، فمكث قابعا في بيته تلك المدة التي يقضيها الطلاب في بيوتهم استعدادا للامتحان، بقي فترة طويلة يشعر بالخزي والحزن والهوان، لم يخرج من بيته، اعتكف في داره، لم يتردد على المعهد حتى لا يدهمه شعور بالعار بينه وبين رفاقه وتلاميذه، تركوه وحيدا، انصرفوا عنه، قاطعوه، ليس بينه وبينهم صلة، صار كأنه يعيش في جحر ضيق خانق معتم، ليس فيه سوى الهوام التي تطير مزعجة في الظلام، والثعابين التي لا تخرج من جحورها إلا لتلدغ وتختفي.

* * *

نظم الأزهر في موسمه الثقافي السنوي محاضرة في مبنى المؤتمرات بقاعة الشيخ محمد عبده، فاحتشد لهذه المحاضرة جمع غفير من الطلاب والأساتذة، ولفيف من كبار رجال الدولة، وكان الشيخ المبصر المتهم أحد الحضور لهذه المحاضرة القيمة، رأى ألا تفوته، فربما أجبر كسره، وربما تمتد إليه يد بالمصافحة، ويرى وجوه زملائه وطلابه مجرد رؤية بالعين فقط، ربما يميل إليه قلب كان يوده، ربما يجنح إليه طالب أو زميل بالمعانقة، مجرد رؤى وخيالات تتراءى له، أضغاث أحلام سعى في الجري وراءها وتعقبها، فاق إلى نفسه، فانقشعت هذه الأحلام وتبددت تلك الأوهام والخيالات.

خرج بعد انتهاء المحاضرة، تلفت يمينا ويسارا علـه يجد واحدا من طلابه، أو أستاذا من زملائه ممن كانت له بهم صلة في الأوقات الغابرة يقترب منه، يصافحه، يتحدث معه، لم يجد أحدا يبسط إليه يده، يمد ذراعه، يقترب منه، إذا وقع عليه بصر أحدهم ارتد إلى جهة أخرى سريعا، دون أن يتوقف عنده، وجد نظرات الإهمال والازدراء تبدت في تجاهل التلاميذ والأساتذة له نالت منه هذه الفرية، وتسربت من مخدعها إلى المجتمع الأزهري كله، لا أحد يعلم سوى الله مدى صحتها أو تلفيقها، نالت منه

نيلا شديدا، وروعته أشد ترويع، ضاقت بها روحه وانسلت نفسه، وتأثر تأثرا واضحا شديدا، بل نالت من الهيئة التي ينتسب إليها، نالت من الأزهر نفسه وسمعته النقية البيضاء، حتى تحاشى الناس ذكرها.

لم يمر أكثر من أسبوع واحد، وتناهى إلى أسماعنا أن الشيخ قد أصبح في ذمة الله، وولى وترك الدنيا دون أن يذرف عليه زملاؤه أو طلابه دمعة واحدة ضئيلة، لم يشعر أحد بحزن لفراقه، لم يترحم عليه أحد، أو يذكره بخير، ونسي الطلاب أن شيخا عاش بينهم، أستاذا يلقي عليهم دروسا في التفسير، كان أبا لهم يشملهم بالتفاهم والحنان، ولكن الحياة عادت كما كانت دون أن يطرأ عليها شيء يعكر صفوها، أو يفسد مذاقها، سارت الحياة حلوة زهراء، والأرض ينمو عشبها الأخضر تترقرق بينها المياه، فتكنس ما يصادفها من أوضار وأعشاب ومخلفات.

لم يسر في جنازة الشيخ أحد من معارفه، وإنما توارى جسده في قبر ضيق، وأهيل عليه التراب، ألقي في حفرة يغشاها ظلام دامس، ولم يعرف أحد أين دفن حتى يتمكن من زيارته في قبره، ولو في إحدى المناسبات الدينية!!

* * *

{ ٤ }

ذهب عبد الدايم صيفا إلى الإسكندرية، لقضاء بضعة أيام، يزور فيها صديقه محمود، فوجده يستعد لاستضافة بعض الأصدقاء في المساء، وأنه يعد لهم مفاجأة مبهرة، ولعلك تحضر لمشاهدة هذه المفاجأة، كانت فكرة تحضير الجن طريفة في حد ذاتها، فلم يحضر مثلها من قبل، وقد ينقضي العمر كله دون أن تتاح له حضور جلسة من هذا القبيل.

في التاسعة مساء توافد أصدقاء محمود الواحد تلو الآخر حتى عجت بهم الغرفة المعدة لهذا اللقاء، كان عبد الدايم في طليعة الحاضرين، حضر الحاج عبد القوي الذي يتعامل مع الجن، يصطحب معه شخصا آخر.. فارع الطول، متين البنيان.. أطلق عليه لقب الوسيط، فهو الوصلة بين الحاج عبد القوي وبين خطاب الجن.

في أثناء الحديث كشف عبد القوي عن قدم الوسيط بها آثار احتراق، وبقع مشوهة من فعل النيران التي مست جلده فأحرقته.... قال موضحا:

- إن هذه الآثار التي تبدو في قدم الوسيط هي علامة أكيدة أنه قد راح في سبات عميق، ولا صلة له بأحد من الحاضرين، لا يسمع ما يقولونه، أو تتفوه به الأرواح، وبذلك يطمئن الحضور. إن الوسيط في عالم آخر بعيد عن اليقظة والانتباه، فإذا تحدثت مع الجن فالجن هو الذي يسمع وهو الذي يجيب، وليس للوسيط علاقة بما يقول الجن، لا يعرفه ولا يقف عليه، حتى لا يكون هناك مجال للبس أو زيغ.

وأتبع الحاج عبد القوي حديثه بنصيحة ركز عليها، وضغط على حروفها وهو يطلقها من عقال لسانه، رجا الحاضرين ألا يأخذوا ما يقال في الجلسة باستهتار أو سخرية، فالجن حساس بطبعه، ولا يجب أن يسخر أحد من كلامه أو وجوده، فلا ضحك أثناء الحديث ولا مزاح ولا هزء، وإنما هو أمر يسير بجدية لا هزل فيه، فإذا شعر الجن أن أحدا يسخر منه، يتمرد ويستعصى على الخروج، وقد يؤذي الوسيط بأن يقاوم خروجه من الجسد، أو ينفذ من مكان حساس، بأن يغادر الجسد عن طريق العين فتفقأ، أو البطن فتنفجر، أو من الأنف فيطيح بها، فيخسر الوسيط نفسه، ويعيش أوقات عمره معوقا فاقدا لإحدى حواسه، يعاني من عاهة مزمنة تلازمه مدى الحياة.

بدأ الحاج عبد القوي في ترديد نصوص باللغة السريانية يحفظها قلبا لظهر.. لغة لا يفهم أحد من الحاضرين منها حرفا، ولا يدرك المقصود منها.

أراد عبد القوي أن يؤكد للحاضرين جميعا أن الوسيط في غيبة عن الوعي، ولا يشعر بما يجري حوله، أراد أن يزيد الحضور تأكيدا، فأشعل عود ثقاب ولسع به قدم الوسيط لم يتحرك، ولم يرتجف، تأكد الحاضرون من نومه، ولا علاقة له بالعالم الخارجي.. استمر عبد القوي في تلاوة ما يحفظ من أقوال، وإذا الشيخة مديحة تهل على الحاضرين تلقي التحية بصوت أنثوي رقيق، لا أثر فيه لحدة أو تبرم أو انفعال، سألت الحاج عبد القوي:

– ما الذي دعاك لمغادرة القاهرة، والقدوم إلى الإسكندرية؟

كان السؤال مباغتا واضحا وصريحا، ولكن المفاجأة التي لم يتوقعها عبد القوي من هذا السؤال جعلته مضطربا، فتغضن وجهه، وتغيرت بشرته، وارتعدت أطرافه، وتهدج صوته، أخذ ينضح عرقا، وتوقع شرا مستطيرا، وأنه ارتكب جرما لا يحق له أن يقترفه.

– هل حدث شيء في غيابي؟ وهل ارتكب شيء لا أدري بـــه وأنا مسئول عنه؟

– لم يحدث شيء من ذلك على الإطلاق، ولكنك تركتنا فجأة دون أن تخبرنا أو تبلغنا أنك سترحل إلى الإسكندرية، كنا نود أن نطمئن على سلامتك، هذا كل ما في الأمر.

أخذ عبد القوي والشيخة مديحة يتبادلان الحديث، ســؤالا منه وجوابا منها،كلاما منه، وردا عليه، وجمع الحاضرين صامت لا تسمع لأحدهم ركزا، حتى خفقة القلب لا تجد لها صدى.

يسير الحوار بين الاثنين في سلاسة وجدية تامة، وإذا بعبــد الدايم تبدو منه ضحكة خفيفة، تبدد استرسال الحديث بينهما، والهدوء الذي يصاحبه من الحاضرين، كانت الضحكة في غــير موضعها، وفي وقت غير مناسب، فتعكر صفو الجو الذي يسيطر على الجلسة، كانت الضحكة أشبه بصوت عُقاب يبدد سكون الصحراء، ضحكة خفيفة لم يستطع عبد الــدايم أن يمنعهــا أو يسيطر عليها، فانفلتت رغما عنه، سمعها الحاضرون، وسمعتــها الشيخة مديحة،وارتاع لها الحاج عبد القوي، تغير صوت الشيخة وبدا فيه الضيق والتبرم.

– نحن مخلوقات مثلنا مثل البشر، جئنا من عالم آخر، جنس من الأجناس، غير جنس الملائكة والبشر والشياطين، فالملائكة أجسام نورانية، جبلت على الخير وطاعة الله، وجنس الشياطين هم أعداء للرحمن وأعداء للمؤمنين.

أما نحن معشر الجن فمثل البشر نتوالد، منا الذكور ومنا الإناث، نحيا ونموت، ولسنا مخلدين، منا الصالح والطالح كالإنس فيهم الخيّر والشرير، وقد وردت في القرآن سورة باسم الجن، استمعوا فيها للرسول، وهو يتلو آيات من القرآن.. كنا نتكالب عليه ونزدحم حوله، نصغي إليه وهو يؤدي الصلاة، ولكنه لم يرنا ولم يحاورنا.

فأنتم تصغون إلى أقوالنا دون أن تروننا، ولذا يداخلكم الشك في وجودنا، وسماع أصواتنا مفتعلة لا وجود لها، وإنما يخيل لكم، أنتم تسمعون أصواتنا حقيقة، وتفهمون كلامنا في الواقع، ولكنكم غير مصدقين لما ترون، فكذا تضحكون وتسخرون ولا مجال للضحك أو السخرية، ولذا فإني سأزوركم قرب الفجر حتى تتأكدوا مما يدور في هذه الجلسة من حديث هو حقيقة لاشك فيها، ولا نزاع عليها.

انصرفت الشيخة مديحة وحضر الشيخ حسن، كان يتكلم بالعربية الفصحى، لا يبالي بقاعدة نحوية، تكثر الأخطاء في كلماته المبعثرة، فيرفع المنصوب، وينصب ما يستحق الجر، كأنه شيخ في زاوية صغيرة، لم يتلق حظا من علوم النحو والصرف، قال كلاما عربيا ولكنه غير مفهوم، يتناول موضوعات شتى لا يربط بينها رابط.

فهو يتحدث عن الأعداء، وأن الجن سوف يبيدونهم، ويقضون عليهم بالسلاح الأبيض، ثم اقتحم حياة البشر، وهم يتصفون بالكراهية ومقت بعضهم لبعض، يستخدمون فيها السلاح الذري، والتجارب النووية، يصيخون لصليل نذر الحرب، يبيد قويُّهم ضعيفهم، ويهلك صاحب النفوذ العاطل منه، يشعلون الحرب الباردة دوما دون أسباب وجيهة، والحروب الأهلية تنشب في ربوع العالم وتتفاقم، واستعمال القوة التي لا مبرر لها في هجماتهم التتارية في صبرا وشاتيلا، حيث كانوا يهاجمون المرضى وهم في أسرتهم فيستأصلون مذاكيرهم.

إنكم معشر الإنس تعيشون في عالم مريع بشع يتصف بالعنف والكراهية، كراهية لا يعرفها عالم الجن، ولا يطيق

سماعها، عالم شرير قبيح، وأرى بعضكم يبتسم ساخرا، ويضحك هازئا، الأجدر بكم أن تضحكوا من أنفسكم، وتسخروا من شروركم.

* * *

انصرف الشيخ حسن بعد إلقاء هذا الدرس الشافي الذي ترك تأثيره في الحاضرين، وحضرت الشيخة مديحة للمرة الثانية.. جاءت منذرة متوعدة، وكررت تمديداتها التي ساقتها في الزيارة الأولى التي وعدت.

لم يستطع الحاج عبد القوي أن يصرف الشيخة مديحة بسهولة كما أحضرها في يسر، حزنت وبدا في صوتها السخط والغضب لما سمعته من ضحكات تناهت إليها، مما ترك عليها انطباعا بأن المقصود من هذه الضحكات السخرية منها، ومن عالم الجن بأسره، تشككهم في قدرتهم على صنع أشياء غير مألوفة لجنس البشر.

إننا جنس آخر غير جنس البشر ولكننا مثله، بل أرقى منه، فالكون برحابته المديدة ملك لنا، سماؤه وأرضه، شرقه وغربه، نمرح فيه كما نريد، نلمس السماء بأطرافها، ونجوب الأرض

بنواصيها، ونخرق السحاب بتراكماته، وما زال البشر يقومون بتجاربهم في اقتحام أقرب كوكب من سطح الأرض، مستعملين مخترعاتهم، وتجاربهم، ومراكبهم الفضائية، أما نحن عـــالم الجـــن فنندفع إلى ذلك كله بقوتنا الذاتية التي منحها الله لنا، كالنسور التي تحلق في الفضاء بأجنحتها.

* * *

بذل الحاج عبد القوي جهودا مضنية لتنصـــرف الشـــيخة مديحة بسلام، دون أن تصيب جسد الوسيط بعاهة مستديمة، أو خسائر فادحة.

بذل محاولات شتى يلقيها بلسانه، ويطلقها بيديه، تصـــبب جبينه عرقا، وبدت قطرات منه تتناثر على وجهه وأنفه، انفعل صوته، وارتعشت كفاه، وتسابقت عباراته يلاحق بعضها بعضا في توتر شديد؛ يبغي استرضاءها، مستعملا طيب الكلام، وحلو الحديث، استعمل الملق والمداهنة حتى انصاعت لعباراته، وهجع صوتها الصاخب، وقبل أن تنصرف كـــررت علـــى مســـامع الحاضرين ضرورة زيارتهم قبل آذان الفجر.

لقد نبهتكم بالتزام السكينة والهدوء في حضـــور الجـــن، لا تُبْدو تهكما أو سخرية، ولكنكم لم تأخذوا بهذه النصـــيحة، ولم

تعملوا بها، وسخر أحدكم من حضورها وحديثها فضحك، كان من أثر هذه الضحكة أن تمردت الشيخة واستعصت على الخروج، كان يمكنها أن تلحق الأذى بالوسيط، ولكن الله ساعدني في إخراجها بسلام.

عبد الدايم طوال الجلسة كان يكتم الضحك، ولم يأخذ حديث الشيخة مديحة مأخذ الجد، فحضور الجن من الأمور الغيبية التي لا يحق له أن يخوض فيها، أو يتجاذب مع غيره الحديث بشأنها.

تفرق الجمع الذي حضر جلسة الجن، وذهب عبد الدايم إلى مخدعه، كان يعالج النوم، النوم المتقطع، يغفو ويصحو، علّ النوم يداهمه بعد إرهاق ليلة طويلة.

لقد غزا القلق رقاده، تمادى إلى سمعه صدى صوت يهمس كحفيف الشجر آت من بعد، فتح مقلتيه في تكاسل ثم أطبق جفنيه من جديد، عاود المحاولة، ولكن الصوت يزيد إلحاحا، صحا مفزوعا أول الأمر، ثم مذعورا مرعوبا.. يحاول أن يستجمع ذهنه الغافي، ويتأهب لسماع هذا الصوت في هدأة سكون الليل.

رأى باب الغرفة يفتح في هدوء بعد أن كان موصـــدا، يصـــبح الباب مواربا، تطل منه امرأة في الثلاثين مـــن العمـــر، يغطـــي جسدها ثوب أبيض حتى أخمص القدم، وفوق رأســـها طرحـــة بيضاء تحكمها على رأسها، وتنسدل إلى الصدر، امرأة بيضـــاء مشرقة الوجه كأنها من الحور العين، تشع بهاء ورقة.

- لقد بررت لكم بوعدي وحضرت لزيارتك؛ لأنك ضحكت أثناء الجلسة وأنا أنخرط في الحديث، كانـــت ضـــحكة مموهـــة بالتعالي، مزينة بالسخرية.. جئت لزيارتك كما وعدت؛ لتعلموا جميعا أن عالم الجن عالم حقيقي فيـــه الأخيـــار الـــذين يوفـــون بكلمتهم، ويبرون بوعدهم، وينفذون أقوالهم وأفعالهم.

هب عبد الدايم من هذا الحلم مذعورا، يتصبب عرقا، يتفل عن يمينه وشماله مستعيذا بالله أن يجنبه هذه الأحلام المزعجـــة، التي تضج مضجعه، ولا تكاد تبرح خياله.

* * *

{ ٥ }

الأصدقاء الأربعة: عبد الدايم، وعبد الشـــكور، وتيســـير، وعادل، حصلوا على الثانوية الأزهرية، تربط بينـــهم الزمالـــة المتينة، والصداقة القوية، تراهم معا في كل مكان يحلون فيـــه، يتلاقون في الدرس، يشاغبون، يمرحون متماسكين متـــآخين، لا تفرق بينهم الأحداث مهما كان فيها مـــن صـــخب وحـــدة، يتزاورون، اتفقوا على أنهم يقطعون مراحـــل التعلـــيم معـــا، وينخرطون في كلية واحدة، فلا يتصور أحدهم أن يفترق عـــن زملاء عمره، ورفاق دراسته، ولكن الأيام تحلو وتمر، يحلو لها أن تسير على هواها لا على هوى الزملاء، فالزمان لا يهادن أحدا، فيولى وجهه حيث شاء، وأينما أراد، ولا يستطيع أحد أن يقف أمام مراده، وإن ابتسم في رفق فظنه الأصدقاء راضيا لا يسخط أبدا، ولا يتغير في لحظة من اللحظات، أنسوا إليه، واطمأنـــت نفوسهم، فالزمن الضاحك لا يعرف كيف يكشر عن أنيابـــه، فيبدو ساخطا يروع الآمنين، أو يبدي خلاف ما يبطن، فيخدع المطمئنين، فالدنيا أمام الأصدقاء الأربعة بســـاط أخضر كالزرع العفي الناضر، والحياة في سيرها تســـير في هـــوادة، مزدهـــرة تتماوج في بهاء ورضى.

ولكن كل شيء يتغير ، يتبدل، يتحول إلى وجهة أخـــرى، ويتخذ طريقا معاكسا، والصداقة المتينة التي تجمع بين الأصدقاء يدب فيها الوهن، ويتسرب إليها الفتور، ويعتريها الانقســـام، فقد أجمع ثلاثة منهم على الالتحاق بكليات الأزهر، غـــير أن الصديق الرابع فضل أن يلتحق بمكان آخـــر، فـــانفرط عِقـــد الصداقة بينهم، فبعد أن كانوا مترابطين يراهم زملاؤهم مجتمعين لا يفترقون أبدا، تقلصوا وصاروا ثلاثة، أما الصديق الرابع فقد التحق بكلية دار العلوم، هذه الكلية كان لها بريق أخاذ يغـــري الطلاب الحاصلين على الثانوية الأزهرية، في مســـايرة العلـــوم العصرية، ويقوم بالتدريس فيها أساتذة كبار أجلاء، اشتهروا في تخصصاهم العلمية، والطلبة في هذه الكلية يتلقون قسطا وافرا من الدراسات اللغوية والنحوية، والأدبية والبلاغية، فضلا عن الدراسات الإسلامية من تفسير وحديث وفقه، فامتزاج العلوم العربية والشرعية في هذه الكلية يدفع الطلاب إلى الالتحاق بها، والرغبة فيها، فالطالب يعد نفسه سعيد الحظ، إذا وقع عليـــه الاختيار، وتم قبوله بين طلابها المستجدين، وبهذه الصورة الـــتي رآها زميلنا تيسير، واستقرت في ذهنه، وألحت عليه، هي الـــتي

دفعته إلى كلية دار العلوم، وابتعدت به عن الأزهر وكلياتــه، فهو لا يرى فيها غير الرجعية والتخلــف، والانكبــاب علــى دروس عفي عليها الزمن، وصــارت كــالأطلال، كأحجــار متداعية، لا يبقى فيها شيء يتمسك الطلاب به، وصارت أثرا بعد عين، فالأزهر بعيد عن الحياة العصرية التقدمية، لا يســاير الزمن، ولا يتجه نحو العلوم الحديثة، فهو يعيش في الزمن الغابر، دون محاولة من رجاله أن يدفعوا بعلومه إلى اتجــاه العصــر، أو يبعثوا بطلابه إلى الحياة المدنية، ومعرفة شئونها، ويسلكوا دروبها ومناحيها.

بهذا الاعتقاد الراسخ كانت تلح هذه الأفكار علــى رأس زميلهم تيسير، فهو متمسك بها متعلق بأهدابها، لم يــر طريقــا غيرها يأخذ به، ولم يجد سبيلا آخر يميل إليــه، حــتى يلتحــق بإحدى كليات الأزهر.

الثلاثة الآخرون ومن بينهم عبد الدايم رأوا أن التحــاقهم بالأزهر هو الشيء الطبعي، هو الامتداد لدراستهم الأزهريــة الأولى، تدرس فيها كتب التراث الإسلامي، والعربي، وقد كتبها علماء أفذاذ، مشهود لهم بالريادة والتبحر في جميع العلوم على

اختلاف مشاربها. ففكرة الأزهر شاملة تعم العالم الإسلامي كله، والدول الأسيوية والأفريقية، وطلاب هاتين القارتين يميلون إلى الدراسة الأزهرية، ويتمسكون بأصولها، لما فيها من مناهج شرعية، ومواد عربية، ثم يعودون إلى أوطانهم ينشرون ما تلقوه من ثقافة دينية أزهرية.

اعتنق عبد الدايم فكرة الالتحاق بإحدى كليات جامعة الأزهر، وتمسك بها، فالأزهر يشع نوره في ربوع العالم كله، وينشر ضوءه في كل مكان تطأه قدم إنسان، وتدرك قيمة الأزهر إذا خرجت عن حدود مصر، وزرت إحدى البلاد الإسلامية، وهذه حقيقة مؤكدة.

فبعد أن تخرج عبد الدايم في جامعة الأزهر دعي إلى الهند لإلقاء محاضرة عن دور الأزهر في نشر اللغة العربية – وكان وقتها معارا في إحدى دول الخليج – في ولاية كيرالا الهندية، التي يعيش فيها جمع غفير من المسلمين، وبعد المحاضرة لقي الحفاوة الغامرة، والهتافات العالية، وحمله الجمهور على الأكتاف، يهتفون بمنزلة الأزهر ومكانة علمائه الأجلاء.

صورة الأزهر الجميلة القيمة في العالم الإسلامي هي التي دفعت عبد الدايم إلى الالتحاق بالأزهر، إلى كلية اللغة، خاصة

أن والده من أهل الصلاح والتقوى، متدين عميـــق التـــدين، ويحمل كل تبجيل وتقدير لمن ينتسب إلى الأزهر ويتخرج فيه، ويريد لابنه عبد الدايم أن يواصل دراسته بالأزهر حتى يصـــبح من علمائه المنافحين عن دين الإسلام، فالمشاعر الدينيـــة الـــتي اكتسبها من أسرته، وعاشت معه طوال السنين، وورث التدين عن أصول تمتد عبر العصور في وسط الصعيد، كل هذه العوامل دفعت عبد الدايم لأن يلتحق بإحدى كليـــات الأزهـــر حـــتى يتخرج فيه، ويصبح أحد علمائه إن لم يصبح واحدا من أعـــلام الأزهر وشيوخه الكبار، صمم على هذا الاتجاه رغـــم كثـــرة المغريات التي أبداها له زميله تيسير، وحرص على أن يضم عبد الدايم إلى دار العلوم؛ ليكون زميلا لـــه في مرحلـــة الدراســـة الجامعية، مآخيا له في المذاكرة والاستيعاب والاتصال.

التحق عبد الدايم بكلية اللغة العربية بالدرّاسة، وغمره فرح شديد وسعادة لا حدود لها، فقد انتقل من المرحلة المتوسطة إلى مرحلة أخرى، مرحلة جامعية يحاضر فيها أعلام كبار، وأسمـــاء شهيرة، في علوم اللغة والنحو، والأدب والبلاغة، والفلســـفة، أسماء كان يسمع عنها ويتمنى أن يراها، يصخي الطلاب السمع

إليهم مبهورين بغزارة علمهم، وقوة حافظتهم، وتمسكهم بلغتهم العربية الفصحى،ممتزجة بلهجتهم الريفية المحببة التي ورثوها عن أصولهم الريفية، وإن كانوا قد تلقوا العلم في دول أوربية كألمانيا وفرنسا، وانجلترا.

كان المحاضر أستاذا في الفلسفة حصل على شهادته من ألمانيا، وله نظام دقيق صارم في محاضرته لم يألفه الطلاب عند غيره من الأساتذة، إذا دخل المحاضرة أغلق بابه واسترسل في الحديث، متدفقا بغزارة لا مثيل لها، مستمرا في درسه لا يأبه لطرقات الباب الملحة من الطلاب الواقفين بخارج حجرة الدرس، مرة يدقون بأكفهم على الباب الأيمن حتى تتخدر أكفهم وتضيع صيحاتهم، فيدلفون إلى الباب الأيسر يعاودون الطرق من جديد، ويرفعون أصواتهم بالصياح ليسمح لهم بالدخول، أو فتح الباب ليحضروا الدرس، لا جدوى من وراء هذا الطرق المستمر والصياح المرتفع.

كان الدرس يبدأ في الثامنة من صباح الثلاثاء، والأستاذ الدكتور يدلف من العباسية الشرقية مشيا على الأقدام، يبغي التريض في الصباح الباكر، ليس له من عادة يأخذ بها ويداوم

عليها سوى هذه الرحلة الصباحية من منزله إلى مقـــر عملـــه بالدراسة؛ ليحافظ على صحته بغية اتقاء المرض.

والطلاب يفدون من أماكن متفرقة ومنها البعيد إلى حد ما، كشبرا الخيمة، والجيزة، فتجبرهم الظروف وقلـــة المواصـــلات وازدحامها وبطئها على التأخير عن وقـــت المحاضـــرة، وهـــم كارهون لهذا التأخير الذي ليس لهم فيه حيلـــة، فـــإذا دخـــل الأستاذ الدكتور في الثامنة صباحا أغلق الباب دونه، ولم يسمح لأحد أن يلج الباب بعده، وإن تعالت الصـــيحات، واســـتمر الضجيج، وارتفعت التوسلات، لم يكن يأبه لأحد من الطلاب، ولم يتوقف عن الشرح، ولا يتزعج من تواصل الطـــرق علـــى الأبواب، وكأن شيئا لم يكن ولا أحد بالخارج، لا تفوته عبـــارة ولا يتلعثم، لا يكل ولا يمل، وهو يعرض لكتاب من مؤلفاتـــه "الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي".

انبهر الطلاب بأسلوبه المتدفق الرصين الســـهل، الـــذي ينحدر من فمه كينبوع نقي، كالماء الصافي، وعرف الطلاب أن لهذا الأستاذ طريقة أخرى غير تلك الطرق التي ألفوهـــا عـــن أساتذهم، فهم يسمحون للطالب أن يقتحم الدرس في الوقـــت

الذي يحضر فيه إلى الكلية، وإن ضاع معظمه، ويتشاغل بالحديث مع زملائه أثناء الدرس، وإن أضاع الفرصة على استماع الآخرين، وفقدوا متابعة الدرس.

* * *

هذا النوع من الأساتذة لا يعرف سوى الدرس والاهتمام بشأنه، والطلاب وأحوالهم العلمية، ومشكلاقمم الثقافية، أما الكراهية التي يكنها بعض الأساتذة لبعض بسبب علاقاقمم المتداخلة المتنافرة، فلم تكن تشغل بال الأستاذ ولا يهتم بها، وإنما يشغله فقط أن يزرع في نفوس طلابه حبهم الجارف لحضور المحاضرة، والاستفادة من علمه.

بعض الأساتذة يفور قلبه حقدا، ويمتلئ كراهية لأستاذ آخر من زملائه، فيجتمع مع بعض زملائه الأساتذة ممن لهم مشرب واحد، واتجاه محدد في الحياة، ومعاملة زملائهم الآخرين، يكيدون لهم ويتربصون بهم بطريقة علنية سافرة، لا تخفى على الطلاب، الذين جاءوا إلى الجامعة ليتزودوا بالعلم، ويتسلحوا بالثقافة، فينصرفوا إلى ما يجري بين أساتذقمم من مهاترات وخصومات، وهم أحرى الناس بالبعد عن كل ما يشين أساتذقمم ويغض من شأفمم.

صبيحة يوم من أيام الدراسة، وفي الوقت الذي يفصل بين محاضرتين، رأى الطلاب أوراقا تتساقط عليهم من الطابق العلوي في مبنى الكلية، أوراقا منتثرة تخفق في الجو، وتلفها نسمات الهواء، هذه الأوراق تتهاوى إلى فناء الكلية حيث يتجمع الطلاب من السنوات الأربع بين المحاضرات، فإذا همت بالسقوط على براح الفناء تخطَّفها الطلاب في لهفة وحماس.

يقول واحد من الطلاب: لابد أن هذه الأوراق إعلان هام.

ويقول آخر: هي دعاية لكتاب جديد، ربما هي سلعة يزمع التاجر ذيوعها وبيعها، ما فحوى هذه الأوراق؟ وما مضمونها؟؟ يقرؤونها وهي في قبضة أيديهم فيجدون فيها قصيدة هجاء نظمها أستاذ في هجاء أحد الشيوخ من زملائه، الذين يكنّ لهم الطلاب كل التقدير، قصيدة مترعة بالألفاظ السوقية البذيئة التي تعافها النفس، وتتبرم لسماعها، هجاء مقذع، وذم كريه، خرج عن كل المعايير الأخلاقية، يتناول الخلق والعرض والرجولة، كان الطلبة يعلمون جيدا كاتب هذه القصيدة، فهو أستاذ شاعر، وعدد الشعراء في الكلية قليل يعد على أصابع اليد الواحدة، وله صديق يشتغل بحرفة الأدب فوق أنه أستاذ جامعي يعمل معه بنفس الكلية، يمتلك مطبعة متواضعة، من بين

مهامها أن تطبع هذه القصائد له ولزملائه الذين كونوا مدرسة من إخوالهم يقرضون الشعر، ويتناولون في أبياته ما يسيء إلى زملائهم، فيجعلونهم موضع سخرية من الجميع، فيتحقق الهدف من وراء قرض الشعر وكتابة القصيدة، حتى تخرس الألسنة، وتعود إلى الصمت والسكون.

مثل هذه المشكلات كانت تسري في الخفاء بين الأساتذة، ولا يعرف الطلاب عنها شيئا، فإذا وقعت قصيدة في أيدي الطلاب وقرؤوها – وما أكثر القصائد التي من هذه النوعية – تجرفها الرياح ويطويها الهواء، فتترنح في الجو حتى تقع في قبضتهم، فيقرؤونها في لهفة وشوق، ثم يتناقلونها، فيقرأها غيرهم، أو يدسونها في سراويلهم، أو يمزقونها في ضيق وتبرم.

أما الأستاذ الذي تناولته القصيدة بالهجاء، وغضت من شأنه ونالت من كبريائه، فيكظم غيظه دون أن يبادر بشيء يدفع به عن نفسه، أو يشرع قلمه محاولا أن يرد الإهانة، التي لحقت به، يبتلعها في مرارة وضجر، ويبدو كارها للحياة، والناس، والعمل، هذه المعارك كانت تدار بين الأساتذة في شيء من الخفاء والسرية، فإذا طم السيل علت في السطح وظهرت في صورة قصيدة من الشعر، أو مقال من النثر، دون أن تمهر

بتوقيع كاتبها، يكلف الأستاذ الكاتب أو الشاعر أحد طلابه ممن يثق به، يصعد الطابق العلوي من الكلية، يضع حزمة الأوراق مصورة فيها القصيدة، يضعها على إطار النافذة، يعلوها الشباك الخشبي، إذا تحرك الشباك تحركت معه الأوراق، يداعبها الهواء، فتنثال في بطء تهتز، تهوي راقصة تترنح، فإذا هبطت متدنية إلى فناء الكلية الواسع، تلقفتها أيدي الطلاب، وما هي إلا لحظات تمر حتى تجدها أسيرة في أيديهم، تجري عليها عيونهم، يتصفحونها في نهم، يرددون ما بها من أبيات تمتلئ بالفضائح والأخبار الغثة الرديئة، يحفظها الطلاب ويرددونها وهم وقوف في الفناء، أو جلوس في المدرجات.

هذه العداوات المستفزة بين الأساتذة، ويصبح الطلاب على علم بها ليست غريبة على المجتمع الأزهري، فمعظمهم نشأ في قرى الريف، وتطبع بأخلاق أهل الريف، فيكيد بعضهم لبعض، ويستعملون الحيل والمكر والدهاء، حتى يصلوا إلى مآربهم، لما بينهم من حزازات أو ضغائن، أو إحن بين العائلات، تطويها القلوب داخل الصدور، وتنتظر الوقت المناسب لإظهارها وإعلانها.

* * *

وكما كان بينهم من حزازات تبدو على صفحة السطح في بعض الأحيان، كانت تجري بينهم صداقات متينة يضرب بها المثل بين الطلاب.

بعض الأساتذة تنشأ بينهم صداقة وأخوة أكثر من مجرد الزمالة، فالشيخ منيع والشيخ إسماعيل متلازمان، يخرجان من الكلية، ويسيران معا في الطريق إلى المترل، إذا تأخر أحدهما لسبب من الأسباب، انتظره الآخر حتى يقطعا الطريق سويا، شيخان معممان يضع كل منهما فوق رأسه عمامة حمراء فاقع لونها، يحيط بها شال أبيض ناصع البياض، ويرتدي كل منهما كاكولة تحتها قفطان شاهي، تنعكس خيوطه تحت أشعة الشمس. كانا متجاورين بالمسكن، يقطن أحدهما بجوار الآخر بالحلمية الجديدة، يسيران في دروب الغورية، ويعرجان في هذا الحي الشعبي وحوانيته التي تمتلئ رفوفها بالبضائع المترلية، والاحتياجات اليومية، ثم يتجهان إلى الدرب الأحمر، ومنه إلى الحلمية الجديدة، تصادفهما كثيرا في هذا الطريق، يتحدثان في أمر ما من أمور الكلية ومشكلاتها، وما حدث بين الأساتذة، يحصون كل ما يدور في الكلية ويؤثر في سيرها سلبا أو إيجابا، أو

يتحدثان عن شئون أسرهم وأبنائهم ومستقبلهم في الحياة، يتآخيان كأنهما توأمان قذف بهما رحم واحد إلى الحياة، يضحكان ويحزنان بل يتنفسان معا، وإذا أصيب واحد منهما بشيء عكر عليه صفو الحياة، تداعى له الآخر فيحس بإحساسه، ويشعر بمشاعره، هكذا عرفهما الأساتذة من الزملاء، والطلاب، ويتعاملون معهما كأنهما رجل واحد لبسا ثوبين مختلفين.

هذان الشيخان: الشيخ منيع والشيخ إسماعيل. الأول قصير القامة، صامت ، إذا خاطبه أحد يجيب إجابة مقتضبة، لا يسرف في الحديث كصديقه الشيخ إسماعيل، الذي هو أقرب إلى الطول منه إلى القصر، تبدو عليه ملامح الطيبة، والتصرف الريفي بما فيه من تفاخر وتعاظم، كأنه يملك أقطار الدنيا برحبها وسعتها، بل الكون بأسره يمنح من نفسه لنفسه ثوبا أكثر اتساعا مما ينبغي، يتحدث كثيرا بلا طائل، بمناسبة أو غير مناسبة، عن أصول عائلته الكبيرة الكريمة التي يشار إليها بالبنان،يشنف أذنك بالحديث عن ثروته الفائقة المتزايدة التي يشتري بها الأراضي والبهائم، ويعد لها الزرائب، كثيرا ما يكلمك عن

إغداقه على الفلاحين المساكين، الذين يقومون بالخدمة في بيت العائلة، وتحت يده جمع من الشغالة: الخولي، ومقاول الأنفار، والأنفار الذين يتكسبون من سماحة يده المفرطة، عرف بين الزملاء والطلاب بأنه من كبار الملاك، الذين يقع تحت سيطرتهم وفي قبضتهم مصير الفلاحين المكدودين، هذا التظاهر هو أقرب إلى التفاخر منه إلى الحقيقة، والذي يستمع لما يقول لا يملك نفسه من الابتسام على هذه الأقاويل التي لا تنطلي على أحد، فقد كان هذا دأبه وتلك طبيعته، التي لا يتخلى عنها في كل المواقف.

كان الشيخ منيع أبيض الوجه، طيب القلب، طاهر اليد، يعمل في الكلية منذ الصباح الباكر حتى ينتهي اليوم الدراسي على امتداد وقته، فهو وكيل للكلية يحبها إلى حد الوله، يتفانى في العمل بها حتى ينسى بيته وأولاده، يتعامل مع زملائه من الأساتذة تلك المعاملة الطيبة، من تنسيق جدول الدراسة وموافقة الجدول لظروف كل أستاذ، ويتولى عمل المراقبة على الامتحان، ويوفق بين الأساتذة إذا حدث بينهم خلاف، أضف إلى هذه الأعمال قيامه بالتدريس في الكلية، فهو المرجع الأول

والأخير، والكلية لا تسير إلا بوجوده، يعتمد عليه عميد الكلية اعتمادا كاملا في مهامه، وما يسند إليه من أمور، وإن شئت فهو المتصرف الحقيقي الفعلي لكل شيء يجري في الكلية.

كشرت الأيام وبدت نواجذها، واكفهر وجهها، وقلبت لصداقتهما الراسخة ظهر المجن، وأدبرت عن هذه الألفة الوثيقة، فدب بين الاثنين خلاف أدى إلى الفرقة بينهما، حتى كادت عرى الصداقة التي بينهما أن تتمزق، وتذهب إلى حال أخرى غير الحال التي استقرت عليها على مدى طويل، ولم تعد الأمور بينهما تجري كما كانت من المحبة والوئام والإيثار، ولم تجر الصلة بينهما كما كانت وكما ينبغي أن تكون، وانحرفت الصلة الوثيقة إلى اتجاه آخر معاكس، اختط الشيخ إسماعيل طريقا آخر يتقرب به للمسئولين في إدارة الجامعة، يزلف إليهم ويتقرب منهم بكل الوسائل الناجعة، التي يراها تساعده على الوصول إلى مآربه، اجتاحته نوبة كرم وعقود ثناء، يبذلها لكبار القوم ومن بيده الأمر من المسئولين، فإذا بهم يرضون عنه كل الرضا، ويقربونه لديهم، وهو يذكر لبعض زملائه أن مسئولا بيده أمر تعيينه في منصب العمادة كطلبه، في مقابل أن يتبرع بمبلغ كبير

يسد به النقص في بند من البنود التي تحتاج إليها الجامعة، أسند إليه كرسي العمادة، بعد كثير من التقرب وعظيم من السخاء.

شعر سيادة العميد الجديد أن الفرصة قد واتته لينـــال مـــن صديقه وكيل الكلية، فقد أصـــبح المســئول الوحيــد الأول المتصرف في أمور الكلية وشئونها، تنكر للشيخ منيع، وظهـــر بصورة أخرى غير التي عهدها منه زملاؤه، تاه بنفسه، وظهرت عليه علامات الغرور السقيم، والكبر المقيت، والخيلاء النافج، والانتقام المريع، حين أقامت الكلية حفل تكريم بمناسبة تعيينــه عميدا، وكان طبعيا أن يحضر وكيل الكلية الحفل وعدد قليـــل من زملائه، وكما هي عادته في حب الظهور، وإســـناد أمـــور الكلية إليه وحده قام خطيبا في الحفل، أمام الجمـــع الحضـــور، وألقى كلمة نوه فيها بمنصب العمادة الذي أسند إليه، وفي أثناء الكلمة أشار من طرف خفي يندد بزميل عمره وصديقه وكيل الكلية، وقال: كل شيء يلغى إذا تم الأمر للعميد، وتجمعـــت السلطة بين يديه، وهل يقاس التراب الرخيص بالتبر الرفيـــع، فهو الشمس الساطعة التي لا تهبط من مكانها في الســـماء، ولا يستطيع أحد أن يرتفع إلى شأنها ويقترب منها، وأنشد هـــذين البيتين لعباس بن الأحنف:

هي الشمس مسكنها في السماء فعزِّ الفـؤاد عزاءً جميلا
فلن تستطيع إليها الصعـود ولن تستطيع إليك النزولا

يشير بذلك إلى منصب وكيل الكلية الذي لا يسـتطيع أن يبلغ مكانة العميد، ولا العميد الذي لا يمكنه أن ينزل عن قدره ليتساوى مع الوكيل.

كان المعنى واضحا ومراميه ظاهرة لمن حضر من المستمعين، لا تخفي على أحد منهم، والوكيل حضر الحفل باعتبار منصبه، الذي يراعي فيه اللياقة والالتزام، والعميد يروح ويجيء أمـام مكبر الصوت، ويتحرك يمنة ويسرة مدلاً بنفسه، وتنطلق هـذه المعاني بمجامع فمه، حتى يبين للحضور منزلته السامقة التي بلغها ووصل إليها.

كان من الطبعي أن يلم الحاضرون بالهدف الذي يريد أن يبثه العميد في أذهان كل من حضر الحفل، فأسمعهم إياه بنفسه، وتحدث به لسانه وكأنه يعلن على صديقه وزميلـه، ووكيـل الكلية، الحرب والمقاطعة، ولم يتوقف العميد عن الكيد بالوكيل، فدعا الموظفين بالكلية إلى مكتبه في اليوم التالي، دعا رؤسـاءهم وألزمهم بألا يعرضوا شيئا من الأوراق الصادرة أو الواردة على

الوكيل، فيبقى الوكيل بمكتبه صورة دون عمل على الإطلاق، وشعر الموظفون بعدم رضا العميد على الوكيل، فأحجموا عن التردد على مكتبه، وظلت يدا الوكيل مغلولة، لا تنبسط لعمل من أعمال الكلية مهما كان ضئيلا، وكان ذلك توطئة لأساتذة الكلية ألا يترددوا على مكتبه، منصرفين عنه لا يلقون عليه تحية، أو يلجون غرفته، ويجلسون فيها كما كانوا يفعلون مرارا قبل أن يغضب العميد عليه، رغم أن بابه مفتوح على مصراعيه، دون أن يغلقه في وجه أحد، فالناس على دين ملوكهم.

ظل الشيخ منيع في منصب الوكالة طوال الفترة التي قضاها الشيخ إسماعيل عميدا للكلية، وهو يعاني من جراء الإهمال الذريع، وانقطاع زملائه عن مكتبه، وعدم الالتقاء به، قضى الوكيل هذين العامين الكاملين وهو منزوٍ في حجرته، يدخل من باب المبنى، ويراه زملاؤه وموظفو الكلية، دون أن يتقدم أحد للسؤال عنه أو الحديث معه، والعميد ينكل به ويلصق به ما لا يسيغه خلق الشيخ منيع وما عرف عنه من خلق كريم، وأسلوب مهذب رفيع.

* * *

{ ٦ }

اعتاد عبد الدايم أن يستقل المركبة من شبرا إلى الدراسة، تجئ مكتظة عن آخرها من شبرا الخيمة في طريقها إلى منطقة الحسين، الازدحام الشديد يجعل الخلق تتـــدافع بالأيـــدي والمناكـــب، موظفون وطلاب، وحرفيون وتلاميذ، تتصاعد منـــهم روائـــح العرق والألفاظ السوقية، والكلمات الغاضبة، الشجار ينشـــأ بينهم لأتفه الأسباب، وربما بغير سبب على الإطلاق، فهذا طبع فيهم لا يتغير، في آخر المركبة ترى امرأة في أواسط العمر يبدو أنـــها عاملة، يدل منبتها على أنها تنحدر من أصول طيبة، يحتك بها رجل معمم كهل يبدو أنه تخطى الأربعين بزمن يسير، تصرخ المرأة بصوت عال غاضب متشنج يجـــذب الركـــاب ويشـــد الانتباه، الكهل لم يكتف بالضغط على المرأة، وإنما تداخل معها وجذبها نحوه في استمائة، عندما صرخت المـــرأة هـــاج بعـــض الركاب المحتشدين في الزحام لما فعله هذا الكهل الوغد، تطوع اثنان يقفان بجواره، ودفعاه إلى الطريق بعد أن أوسعوه لكمـــا وضربا، تحسس عمامته حتى لا تنزلق منه فتسقط على الأرض، وسوى ملابسه التي تهدلت ، وكرامته التي تبعثرت.

هبط عبد الدايم في منطقة الأزهر، دخل كلية الشريعة، رأى أمامه الشيخ بهجت غزال الذي رآه منذ أيام يقذف به خـــارج المركبة مصحوبا باللعنات والسباب، وجهه يميل إلى الاســـتدارة ويضرب إلى السمرة، سمين الوجه، كـــبير الـــرأس، عـــريض المنكبين، يرتدي جبة رمادية اللون، مفتوحة من أعلى الصـــدر حتى عرقوب قدميه، يخب فيها خباً، يظهر من فتحة الجبة قفطان لامع يضوي تحت أشعة الشمس، يربطه من أعلى البطن حـــزام لامع عريض به نقوش وزخارف تركية يتحلى بها، يسير لاهيـــا تائها غافلا عما حوله، لا يدري عن أحد شيئا، لا تعـــرف مـــا يجول في نفسه، وما يتردد على فكره، ولا يهمه إذا كان الذي ألقى إليه التحية ويجاوره في الطريق يعرفه أو لا يعرفه. الطلاب يأنسون إليه، يحبونه لتعليقاته الساخرة وروحه الفكهة.

يكتب عمودا يوميا بإحدى الصحف القومية، يبث فيها آراءه المتعلقة بأمور الدين وأحواله الشخصية، ويرد على تســـاؤلات القراء في أمور شرعية وما يصادفهم من مشكلات، يوضح لهم فيها رأي الدين أو اختلاف الرأي.

الشيخ بهجت غزال يصعد الدرج إلى غرفة أساتذة الشـــريعة بها ثلاثة من الشيوخ أعمارهم فوق الستين، باب الغرفة مغلـــق عليهم، لا يدري أحد ماذا يدور داخل الغرفة.

سمع الطلاب جلبة وضوضاء صاخبة تنبعث من داخل غرفة المشايخ، وتخترق جدرالها، تساءل الطلاب الواقفين في الردهة عن سبب هذه الأصوات الغاضبة التي تخترق سكون المكان، وتحيل الجو إلى سخونة مشتعلة، تضيق لها الصدور.

رأى عبد الدايم الشيخ بمجت يتخذ طريقه نحو غرفة أساتذة اللغات الأجنبية "انجليزية وفرنسية" مهرولا، وعصاه الغليظة راسخة بين يديه الدسمتين يلوح بها في الهواء، وتتطاير من فمه الكلمات متدفقة متآكلة الحروف غير مفهومة، يضرب باب الحجرة بقدميه فيرتجج ويحدث صوتا غليظا مرتفعا، يهجم على أساتذة اللغات، أمامهم زجاجات الخمر، ومجموعة من الأكواب بعضها فارغ وبعضها فيه بقايا خمر، بعضهم يداعب الكأس في غفوة، ومنهم من يضعه أمامه في فتور.

كانت الساعة الحادية عشرة صباحا من شهر رمضان، ومنطقة الحسين التي ترتفع فيها المآذن وتضم كثيرا من المساجد التي يسهر فيها الناس والأحبة حتى الصباح يحتفلون بشهرهم الكريم، والأزهر يحيا في هذه المنطقة ويعتبر جزءا منها لا ينفصل عنها.

أخذ الشيخ بهجت غزال يلوح بعصاه الغليظة ويضرب بها الزجاجات، ويلصق بهم أبشع النعوت وأقبح الصفات، يا كفرة، يا زنادقة، يا أولاد الحرام، وأخذ يندد بهم لاجترائهم على هذا الشهر الكريم، وما تحفل به غرفتهم من أنواع الخمور والمباذل، لقد دمغوا الشريعة وهم في ساحتها ومقر دارها، واجترءوا على الأزهر وسمعته النقية، وحطموا كل القيم والأعراف وما يحرص عليه الأزهر من مبادئ وأخلاق.

استمر الشيخ بهجت في إلقاء هذه الخطبة بعباراتها النارية الملتهبة كأنها شواظ من نار، حتى كاد أن يمسك بخناق بعضهم، ففروا من أمامه مذعورين كما يفر الغزال المستأنس من أمام أسد هصور.

مال هذا الشيخ ومالنا؟ نحن لم نؤذه ولم نهنه، ولم نتعرض له بشيء، وإذا كنا نشرب الخمر فنحن نشربه في غرفتنا، غرفة مخصصة لنا، والباب مغلق دوننا، والإسلام الذي يستند عليه هذا الشيخ الأرعن قد أمر الناس أن يتركوا وما يدينون، وديننا يبيح لنا شرب الخمر، فله دينه ولنا ديننا، ونحن لم ندع أحدا لشربها ولا أغريناه بشربها، فليس له أن يعتدي علينا هذا الأحمق

الحنبلي، ويتعامل بكل هذه الفظاظة والهمجية التي لم نعرفها من قبل، إننا نعيش في وسط غير ملائم، غير متحضر، ولا يليق أن يصدر عن شخص مثقف، ولا أستاذ جامعي متحضر.

اشتعل الحماس بقلوب الطلاب، وطارت أنفسهم بتشـــجيع الشيخ بهجت غزال على تصرفه، مؤازرين له، يؤيدونه في كـــل كلمة قالها، في تصرفه، في أفعاله وأقواله، وهو لم يفعل ما فعلـــه إلا منافحة للدين، وذود عن مشاعر المسلمين الجريحة.

ردد الطلاب دعوة الشيخ بهجت غزال في مظاهرة اشتعلت من تلقاء نفسها، لم يمهد لها أحد، ولم يدع إليها انتـــهازي، ولم ينظمها مسئول، التحمت الأقوال بالهتافات، وتأججـــت نـــار الكراهية والسخط بين الموظفين والطلاب، والتقـــت الحنـــاجر والأفواه، والجميع يلعن الأساتذة الأجانب الـــذين اقتحمـــوا الأزهر وأفسدوه، جعلوا منه ماخورا لتعاطي المنكرات، ويجرون الطلاب إلى الفسق، ويرتكبون الآثام في شهر رمضان، واعتادوا شرب الخمر كلما دخلوا غرفتهم، كان ضررهم أكثر من نفعهم وشرهم أشد من خيرهم.

تنقل الخبر من مكان إلى مكان، وانتشر بسرعة مذهلة فاقت كل تصور، وهزت جنبات الأزهر كله كالرياح الهوجاء الـــتي

تحطم كل ما تصادفه، وأصبح خلية يطن فيها صوت الشيخ بهجت غزال المجلجل، كما يطن الزنبور على المخلفات التي تنبعث منها روائح عطنة، تريد ألا تبقي على شيء من القيم والأخلاق.

ظل طلاب الأزهر قاطبة يذكرون هذه الحادثة الغريبة، يستزيدون منها لفترة طويلة، وكان بطلها الشيخ بهجت غزال.

* * *

تخرج عبد الدايم في جامعة الأزهر، وكانت خمس دفعات سبقته في التخرج دون أن تحظى بوظيفة في الأعمال الحكومية، من ست وخمسين إلى سنة إحدى وستين، أصيب الخريجون بيأس وإحباط شديدين، ومن المتخرجين من آثر البقاء في قريته بقراريطه التي ما زالت في حيازة أبيه، ومنهم من مسح ظهر مصر بحثا عن وظيفة، مشرقها ومغربها، ومن شمالها من مرسى مطروح والإسكندرية إلى أسوان، عسى أن يحالفه الحظ فيقع على عمل ولو بمؤهل متوسط دون جدوى، جابوا أرض مصر بلدا بلدا حتى أراقوا مياه وجوههم، ولكنهم عادوا بخفي حنين.

وفي يوم طلعت شمسه، وأشرقت نوره فمسح الكآبة عن وجوه الخريجين، التي علاها الغبار، وترك على الوجوه آثار القتامة التي تفتقر إلى من يزيلها عنهم، صافح وجه عبد الدايم إعلان عن وظائف حكومية؛ ليتقدم خريجو الجامعة في مكتب القوى العاملة، دخل في روعه أن الإعلان استهلاك محلي يعمل على تسكين آلام البطالة وتخفيفها، التي تنغص على من أتموا تعليمهم الجامعي ولم يعثروا على وظيفة، لم يهتم عبد الدايم

بالإعلان، ولم يأخذه مأخذ الجد، فهو عمل روتيني لا يرجى من ورائه خير إلا مجرد التخفيف عن هموم المحبطين، خمس دفعات كاملة من ثلاث كليات أزهرية: أصول الدين، والشريعة، واللغة العربية، لا يقل عددهم في العام الواحد عن ألف خريج، أي خمسة آلاف خريج من جامعة الأزهر وحدها، فكيف تستطيع الدولة بإمكاناتها المحدودة ومواردها الضئيلة أن تعهد إلى نفسها القيام بهذه المهمة الشاقة، وتعين هذا الجيش الحافل من المتخرجين، هذا الجبل الشامخ، والطود العظيم، الذي لا يمكن تفتيته بحال من الأحوال، وإذا أحسنّا الظن بموارد الدولة فيمكنها أن تعين بعض العاطلين وليس جميعهم.

رغم كل هذه الأفكار التي ملأت رأس عبد الدايم كما رسخت في أذهان زملائه الذين تخرجوا ولم يجدوا عملا، إلا أن ذلك كله لم يمنعهم من التقدم لشغل هذه الوظائف المزعومة، فالأمل يحدوهم في إحدى الوزارات، كالتعليم والأوقاف والأزهر، أو غيرها من الوزارات الأخرى.

شغل عبد الدايم نفسه، وتسلىّ عن البطالة، وانخرط في الحصول على دبلوم (تخصص التدريس) وهو في الحقيقة

دراسات تربوية ونفسية تعرف المنتسب إليها مناهج الدراسة، وكيف يعد خطوات الدرس ويسير على تنفيذه، ويراعي الأحوال النفسية، والتربوية للتلاميذ، ويستميلهم إلى الدرس ويحببهم في الاستماع إليه، ويجعلهم مشغوفين بالدراسة، وطريقة الأستاذ.

الدراسة في هذا الدبلوم مقرها كلية اللغة العربية وهي نفس المكان الذي قضى فيه عبد الدايم سنوات دراسته الجامعية.

وفي يوم من أيام شهر إبريل، وجد عبد الدايم نفسه يرتاد إدارة الأزهر التي تجاور مقر دراسته، التقى بالشيخ الزنكلوني زميل الدراسة، والأخ الزنكلوني بسيط الملامح، طيب القلب، طاهر النفس، نظيف اليد، يقدم خدماته لكل من يطلبها منه، معارفه كثيرة، فهو ينحدر من أصول أزهرية عتيقة، وجده من هيئة كبار العلماء، يعرف رجال الأزهر والعاملين به، ويعرفه الموظفون والرؤساء، ومن له صلة بالأزهر من قريب أو بعيد، أخبر الشيخ الزنكلوني عبد الدايم أن صديقه الشيخ حسن النبيه كلفته إدارة الأزهر وجعلته مسئولا عن تنسيق الوظائف الأزهرية، ليعتمدها من مكتب القوى العاملة، فهو الذي يحصر

الوظائف: نوعيتها، وعددها، وحاجة الوزارات المختلفة من أعداد المتخرجين، ممن لها صلة بالأزهر،ومن صميم عمله أن يحيط بعملية التعيينات من أولها لآخرها، وأرى أن تذهب معي إلى الشيخ حسن النبيه فهو في الدور العلوي؛ لتذكر له رغبتك، ويضع اسمك أمام الوظيفة التي تريدها، وفي الوزارة التي تحب أن تعمل بها. وإذا بالشيخ حسن النبيه نراه أمامنا على الدرج يهبط منه للذهاب إلى إدارة القوى العاملة؛ لينجز مهمته التي كلفه الأزهر بها، أخبرنا بذلك أثناء حديثه معنا، وبين لنا أن أمر التعيين حقيقة لا هزل فيها، وأن أوراق التعيين بحوزته والأسماء ضمنها، وهو الآن يذهب إلى وزارة القوى العاملة؛ لإتمام الأمر كله، وأخذ الشيخ حسن النبيه البيانات التي تخص عبد الدايم بعد أن أبدى له رغبته في المكان الذي يحب أن يعين فيه.

أخبره عبد الدايم أنه يود من صميم فؤاده أن يجري تعيينه بالإذاعة المصرية، فالإذاعة هي المكان المحبب لديه؛ حتى يتردد صوته عاليا، يسمعه الملأ كله، ويسري صداه في كل مكان تصله إذاعة القاهرة، فالإذاعة تظهر قدرات المذيع بامتلاء صوته، وحسن بلاغته، هكذا كان يتجه تفكير عبد الدايم،

ويرى أن يتحقق أمله وتتأكد رغباته إذا نال مكانه في الإذاعة المصرية، وإن كان يخشى أن تكون الحكاية كلها مجرد أحلام يقظة، أو سراب خادع لا ينتهي على شيء مفيد مستمر.

انتظر الاثنان الشيخ حسن النبيه قرابة ساعة من الزمان، وجاء يخفق والملف في يده، وقد اعتمد الأوراق من وزارة القوى العاملة، جاء يخب في ملابسه الأزهرية، العمامة الحمراء بشالها الأبيض المحكم، وكاكولته الأنيقة، وطوله الفارع، ومظهره الرائق المهندم، تحسبه من فرط بهائه مسئولا كبيرا في الأزهر، وبيده تجري وظائف الأزهريين، وبأصابعه يضع كلا منهم في الموقع الذي يناسبه.

الشيخ حسن النبيه أكد لعبد الدايم والشيخ الزنكلوني أن حركة التعيينات قد صدرت، وانتهى التوقيع عليها، ولكنه لم يتمكن من حشر عبد الدايم بين من تم تعيينه في الإذاعة المصرية، لوجود أربعة من الموظفين يعملون بالإذاعة كمستمعين بمكافآت، فثبتوا في هذه الحركة على درجات، دون أن يقبلوا غيرهم، ثم أراد أن يرضي الشيخ الزنكلوني، فوضع اسم عبد الدايم بين المعينين في التدريس بالأزهر.

هذا التعيين في الأزهر لم يكن يرغب فيه عبد الـــدايم، ولم يفكر في السعي إليه، ولم يكن مصدر سعادة له، إلا أنــــه كـــان ينبوع سعادة لوالده، الذي أحب الأزهر حبـــا جمـــا، وتعلـــق بشيوخه، يودهم ويتقرب منهم، وقد كان صديقا لشـــيخ مـــن القضاة، يلازمه كظله، ويسمع أقواله، فإذا تحدث أصغى إليـــه واعتبر كلامه الكلام الذي لا معقب له، وإذا فعل شيئا كان هو الفعل الحميد، الذي يجب عليه أن يقتدي به، ويكرره بحذافيره دون زيادة أو نقصان.

كان أبو عبد الدايم يسأل الله أن يجعل من صلبه ابنا أزهريا يتعلم في الأزهر، ويعمل فيه قاضيا شرعيا، أو مدرسا في معاهده فتتحقق أمنيته التي كان يحلم بها وهي تراوده في المنام واليقظة.

عاد عبد الدايم إلى منزله، لا يستطيع أن ينكر تلك الفرصة التي هيأها له ولزملائه الدولة، فيصـــبح مســـئولا مدرســـا في الأزهر، هذه الفرصة التي سيسعد لها والده ســـعادة عارمـــة، ويفرح بها كل الفرح، وسيكون مثل صديقه القاضي، الـــذي كان يطلق عليه لقب المفتي؛ لأنه متفقه في أمور الـــدين الـــذي يعرف عنه الكثير.

عبد الدايم الذي قضى عمره في الدراسة الأزهرية: ابتدائي وثانوي وجامعة، وخبر أساتذة الأزهر عن قرب ومعايشة، عرف ما فيهم من طيبة وتسليم، وما فيهم من عزة نفس، ورضا بما قسم الله، وتوكل على الله في كل ما يعن لهم من أمر، والتسليم بقضاء الله في كل ما يتم لهم خيرا كان أو شرا.

لم يكن يرضى عبد الدايم هذا السلوك المتواكل، وأن كل شيء يحدث لهم هو من تصرف القدر، والقدر لا يعانده إلا كافر، لم يكن يعجبه هذا التصرف، ولم تبهره هذه القناعة، ولا يرضى عن هذه الطيبة المفرطة الطيبة، التي تساير طباع الشيوخ الذين ينتسبون إلى الأزهر، يحبونه هذا الحب المفرط، ويدينون له بالولاء الكامل.

لم يكن عبد الدايم مفتونا بالأزهر كوالده، ولذا جاء تعيينه فيه على غير هواه، فهو لم يسع إليه، ولم يجدّ في طلبه، ولذا لم يفرح بقدومه إليه، ولم يسعد لأنه أصبح مدرسا في الأزهر الشريف.

تناول غداءه بالمترل وأخبر والده بأمر تعيينه في الأزهر، وقد انشرح صدره لسماعه الخبر، ودعا لعبد الدايم بالبركة،

وحسن الفعال، ثم خرج عبد الدايم من منزله متوجها إلى حضور درس الدبلوم التربوي، في تخصص التدريس، استقل إحدى الموصلات في طريقه إلى الأزهر، وغادرها عند محطة النزول، أمام الجامع الأزهر، لم يصدق ما رأته عيناه من هذا الحشد الهائل من زملائه الطلاب الذين يدرسون بالدبلوم التربوي، صفوف من الزملاء متراصين متلاصقين، لا يكاد يفصل الواحد منهم عن زميله إلا بمقدار نصف متر.

ظن أن في الأمر كارثة حلت، أو جنازة وقعت لمسئول في الأزهر، سوف يتبين اسمه بعد حين، وقد جاء الزملاء لقضاء واجب العزاء فيه، ولا شك أنه رجل عزيز مهم له شأن كبير.

يسمع أحد الزملاء: هل حقيقة ما وصل إلى أسماعنا؟ هل الخبر الذي جاءنا صحيح؟ هل القوى العاملة قامت بتعيين المتقدمين إليها؟ هل حدث بالفعل أنه قد تم تعيينك؟ خمس سنوات مضت دون أن نسمع شيئا عن أمر التعيين، وهل عينت في الأزهر؟ وهل التعيين حدث لك شخصيا؟ أم للمتخرجين جميعا؟ وانهمرت أسئلتهم كموج هادر لا يكف صخبه وضجيجه، يريدون أن يستوثقوا مما حدث لعبد الدايم، ويطمئنوا

على مصيرهم، وعلى مستقبلهم، فالمستقبل أمامهم مظلـــم، لا يبشر بتسلل النور إليه، فلا عمل، ولا تعـــيين، لم يســـمعوا إلا وعودا أراد بها المسئولون التخفيف من هموم المتخرجين، الـــتي يكابدونها دون أن يكون لها ثمة بريق من أمل بالتعيين بإحـــدى الوظائف الحكومية، وهم وغيرهم من الزملاء اكتـــووا بنـــار التردد على المدارس الخاصة؛ علهم يجـــدون فرصـــة للعمـــل، والكثير منهم لا يجد شيئا وليس عندهم أمل في أن يجدوا شيئا، ومن هنا كانت لهفتهم على أن يقفوا على جلية الأمر، وقفوا من محطة الأتوبيس أمام الجامع الأزهر حتى مدخل الكلية، مســـافة تربو على كيلو متر، يرددون أسئلتهم في لهفة حول موضـــوع التعيين، فإذا انتهى عبد الدايم من الإجابة على ســـؤال تلقفـــه زميل آخر بنفس السؤال، ورد عليه عبد الدايم بنفس الجواب، فإذا انتهى من الإجابة بادره زميل ثالث، ورابـــع، وخـــامس، بسؤال على شاكلة السؤال الأول ومعناه، ســـئم مـــن كثـــرة السؤال وكثرة الإجابة، وتكرر هذا من شخص إلى آخر، ومن زميل إلى زميل، حتى بلغ باب الكلية، والزملاء في فرح غـــامر من جهة، وإنكار لما يقول عبد الدايم من جهة أخرى.

كان الأمر نافذا والتعيين حقيقة، ولم يكن ثمة مجال للشك أو الخداع أو الكذب، في أمر مصيري تشرئب إليه أعناق الآلاف من المتخرجين.

انتهى الدرس التربوي وغادر الطلاب الدرس إلى بيوقم، تحدوهم الفرحة الغامرة، ويملأ صدورهم الحبور والسعادة، ولاح لهم المستقبل المبتسم المشرق، بدلا من هذه الكآبة التي استبدت بقلوبهم، حتى غمرها اليأس من حياة كريمة، بعد طول الفترة التي أمضوها في الدراسة، وبعد أن خبت شعلة الأمل في نفوسهم، عاد بريقها من جديد، وتسلل شعاعها نحوهم، فاطمأنت نفوسهم، وانشرحت صدورهم، وعادوا من جديد إلى الحياة، يشقون دروبها، بصبر حلو ونفس مطمئنة.

ارتاحت نفس الشيخ عبد الدايم، كما هدأت نفوس زملائه بتعيينه في إدارة الأزهر بالقاهرة، وكل من يصل إلى الشهادة العليا – أي الليسانس – يلقب بشيخ، عين بالإدارة ندبا عن التدريس بالفيوم، وساعده على هذا الندب الشيخ حسن النبيه، إكراما للشيخ الزنكلوني، كان هذا الندب إلى القاهرة يحمل في طيه فوائد جمة للشيخ عبد الدايم، فيه اختصار للمسافة التي

يقطعها إلى الفيوم ذهابا وإيابا، وفيه تجنب السفر والإرهاق من جرائه يوميا، وشغل الوقت بما لا يفيد، وفيه صعوبة تحقيق رغبته بالانتساب إلى الدراسات العليا، فالسفر سوف يعوقه عن مواصلة الدراسة؛ لأن السفر سيبتلع الوقت كله، ناهيك عن الإرهاق الذي يصيب المسافر فيمنعه من التفرغ لشيء آخر.

كل ذلك كان بفضل الشيخ حسن النبيه الذي ساعد عبد الدايم في تعيينه بالأزهر، وهاهو يسدي إليه خدمة أخرى بندبه إلى القاهرة، كان لهذا الندب بالغ الأثر في حياة عبد الدايم، حيث إن وجوده بالقاهرة أتاح له فرصة الالتحاق بالدراسات العليا، التي كان من الصعب أن تحدث إذا عين في مكان قصي، يستلزم منه السفر صباح كل يوم، سرح بخاطره، وارتد بذاكرته التي اختفت تحت الغيوم، حين تذكر ابن عمه زهدي، الذي تخرج في كلية أصول الدين، ويسبقه بأربع سنوات عجاف في الدراسة، فحين تخرج زهدي في الكلية، كان عبد الدايم على مشارف دخول كلية اللغة العربية، لم يكن زهدي مجرد ابن عم لعبد الدايم؛ بل كان صديقه وموضع سره، رغم أنه يكبره ببضع سنوات، وعين معه في هذه الهوجة التي تمت بعد طول انتظار،

وأخذت في طريق تعيينها كل من تخرج ولم يجد عملا، وحصل على مؤهل عال لمدة تربو على خمس سنوات، عين زهدي في طنطا في الوعظ والإرشاد، عين واعظا يخطب في المصلين في صلاة الجمعة، دائم التنقل من مسجد لآخر، كل يوم جمعة تراه في قرية من قرى محافظة طنطا، يدور في المحافظة بين مساجدها، كان عمله سهلا بسيطا لم يكلفه عناء أو مجهودا كبيرا، يكفيه تحضير خطبة واحدة في الشهر، يلقيها مرة في هذا المسجد، والأسبوع القادم يلقيها نفسها في مسجد آخر في بلدة أخرى، ويذهب في الأسبوع الثالث والرابع إلى مسجدين لم يرتدهما من قبل، فتبدو الخطبة طازجة، كأنه لم يلقها من قبل، وكأنها أعدت خصيصا لهذا المسجد دون غيره، وهو في واقع الأمر قد سبق أن أعدها وألقاها أكثر من مرة، ولذلك فإن أئمة المساجد يضمرون للوعاظ شيئا من البغض والحسد؛ لأنهم في نظرهم يتمتعون بميزة الراحة في العمل أكثر منهم، فكل إمام مسجد ثاو في موضعه لا يبرحه إلى مسجد آخر، وعليه كل صلاة جمعة أن يعد خطبة ليلقيها للمصلين، وإذا اختار هذا الأسبوع موضوعا لخطبته، لا يستطيع أن يكرره في الأسبوع المقبل، فمن عادة أهل الريف في

القرى والمركز والمحافظة، أن يصلوا في المسجد القريب من بيوتهم، لا يغادرونه إلا لماما، حين يكون لديهم طارئ يحتم عليهم أن يتخلفوا عن صلاة الجمعة في مسجدهم، الذي اعتادوا الصلاة فيه، ولجأوا إلى مسجد آخر للصلاة نظرا لقربه منهم.

ولذا كان الشيخ زهدي – الذي أصبح شيخا بعد تعيينه في وظيفة الواعظ – شيخا معمما يرتدي الجبة المفتوحة من العنق حتى كعب قدميه، من أعلاها إلى أسفلها، والقفطان الشاهي اللميع المشدود بحزام عريض من الحرير، حتى لا ينفتح القفطان فيظهر ما خفي من سيقانه الممتلئة المشعرة السمراء، والعمامة الحمراء الفاقعة، وحولها الشال الأبيض الناصع، والحذاء الأسود الجلدي اللامع، كان يختال بنفسه إذا تحرك، يسير في عظمة، وكأن الأرض تئن تحت قدميه من فرط زهوه، ولكنه حين يصعد المنبر، يصعد متهاديا يرفع ذيل جبته كأنه يخوض في ماء، ويقوم على المنبر وأمامه مكبر الصوت، يؤدي السلام ثم يبدأ الخطبة، ويحمد الله.

صلى عبد الدايم وراء الشيخ زهدي ابن عمه الخطيب، وأعجب بطريقته في الإلقاء، ومضمون خطبته التي تحدث فيها

عن مضار التزاور بين الأصدقاء، وانكشاف الحريم على الرجال، الذين يضمهم مجلس واحد، وبتكرار الزيارة تتكرر المشاهدة، وهذا لا يقره شرع ولا دين، وقد يسبب مشاكل عديدة، وينبئ بشر مستطير، وهذه الزيارات المختلطة يراها بعض المسلمين تطورا وتمدنا، وأخذ يشدد على وجوب تجنب المسلمين لذلك، محذرا من وقوع المعاصي نتيجة لهذه الزيارات، وأخذ يضرب الأمثلة على هذا التصرف البعيد كل البعد عن الدين، بعد انتهاء الخطبة دعا الشيخ زهدي ابن عمه عبد الدايم لزيارة منزله، وتناول الغداء معه، أخذا يتحدثان عن بعض الأمور الشخصية والعائلية، تذكر عبد الدايم تلك القصة المؤلمة التي تنجم عن الزيارات المختلطة بين الأصدقاء ، كما حكى الشيخ زهدي على المنبر.

أحد الأصدقاء يعمل في إدارة الأزهر، وإدارة الأزهر تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم للبحوث، وقسم للوعظ، وقسم للمعاهد الأزهرية، هذه الأقسام الثلاثة تتبع مشيخة الأزهر، ظل قسم البحوث متربعا في الدرَّاسة، وقسما الوعظ والمعاهد في مبنى واحد، بشارع بور سعيد، بالقرب من مستشفى أحمد ماهر

بجوار باب الخلق،تذكر هذه القصة التي نقشت أحداثها في ذاكرته، كما ينقش المثال بإزميله على الصخر، ليشكل عمله الفني، أحداث وقعت لا تغادر رأسه ولا يستطيع أن ينساها، وإنما ظلت باقية محفورة حتى هذه اللحظة.

في هذا اليوم جاء إلى إدارة الوعظ علم من أعلام الأزهر، مسئول كبير، عرف عنه الصراحة والصرامة، والبطش بكل من يهمل في عمله، أو يعوج في سيره، كان يرهبه الموظفون والعمال رهبة تنخلع لها قلوبهم، إذا برز اسمه في طيات حديث من الأحاديث، جاء المسئول الكبير يزور إدارة الوعظ، وقبل أن يزورها مال إلى إدارة المعاهد فاستقبله وكيل الوزارة، ورافقه إلى مكتب مدير إدارة الوعظ، كان المسئول الكبير يستشيط غضبا، وعيناه تتقد جمرا، ينبعث منهما شرر لافح، يكاد يحرق من حوله، متوتر شديد التوتر، حين التقى بمدير الوعظ ابتدره بصوته المجلجل الحاد على مسمع ممن كان يرافقه، ويحيط به من كبار المسئولين، وحشد من أصحاب الشأن بالمعاهد الأزهرية، وإدارة الوعظ: إن الوعاظ الذين يعتمد عليهم الأزهر في حمل رسالته السامية، وتبليغها لجماهير الناس، وخطبهم الجامعة في

مساجد الجمهورية يوم الجمعة؛ تلبية لحاجة المسلمين، وتهيئة لهم كي يعيشوا حياة أفضل، فيها روح السماحة والمودة، والصلاح والتقوى، والبعد عن زهو الدنيا وزينتها وغرورها، هؤلاء الوعاظ تناسوا مهمتهم الجليلة، وساروا على النقيض منها، ضاربين برسالة الإسلام عرض الحائط، غير مبالين بها، ودون أن يعملوا حسابا لآخرتهم، ومكانتهم عند الناس.

لم ينتظر أن يسألوه عن هذه الكارثة التي حاقت بالوعظ والوعاظ، لا شك أنها كارثة لها وقع شديد، قد تنصب على رؤوسهم كصاعقة دون ترقب أو انتظار، قبل أن يتفوهوا بها ويستمعوا إليها، ويعرفوا فحواها، قبل أن ينبههم عليها، فالكارثة تبدو جلية واضحة، معلنة عن نفسها في جسارة، قبل أن تطل من مخبئها، وتنشر سمومها.

لم ينتظر المسئول الكبير أن ينطقوا بتساؤلاتهم، أو يبتلعوا ما انحشر في حلوقهم من غصة حادة، تكاد تطيح بهيبة من حضر من هيئة الوعاظ الكبار.

حاول المسئول الكبير أن يبدو هادئا ساكنا، ولكن أعصابه فلتت منه، فبدأ صوته يعلو وهو يحكي ما حدث:

إن شيخا من الوعاظ مرض وأصبح طريح الفراش، أصيب بشلل رباعي عوقه عن الحركة والكلام، يومئ بالإشارة التي لا يستطيع غيرها.

لم يكن أحد في المترل غير زوجه التي ترعاه وتقف على شئونه، ولم يكن له غير زميل صديق من القائمين بمهمة الوعظ، يتردد عليه قبل أن يمرض، ودأب على زيارته بعد أن مرض وأصبح طريح الفراش.

تدهورت حال المريض الصحية والنفسية، حتى أصبح كالميت في جسد حيّ لا أمل لديه في الشفاء.

بدأ الواعظ يغازل زوج صديقه، ثم تجرأ وتلمس أجزاء جسدها، يلتصق بها أمام الزوج المريض، والزوجة لا تتمنع عليه، وتشاركه الفعل، تجردا من ملابسهما وأصبحا عاريين تماما أمام الزوج، يضمها إليه بعنف، وينهال عليها لثما وتقبيلا، ولا يستطيع الزوج المريض أن يمنع شيئا مما يحدث أمام عينيه.

المريض ملقى على الفراش لا يستطيع أن يحرك ساكنا، غير أن دموعه المالحة الحارقة تنساب من عينيه في أسى، فأغمض عينيه على مضض، وطوى صدره على بغض، وتمنى أن يواري التراب جسده، ويضم القبر رفاته.

لقد فتح الرجل بيته لصديقه الواعظ، زميله ورفيق مهنتـــه، فعبث بزوجه دون أن يرعى حق الله وحق الصداقة.

سرد المسئول الكبير أحداث هذه القصة في سخط وتــأفف وغادر الحجرة يلعن الوعاظ بمزيد من الشتائم.

* * *

{ ٨ }

التحق عبد الدايم بقسم البلاغة والنقد بالسنة الأولى، واقتحم هذا القسم عن رغبة أكيدة، وحب جارف للعلوم البلاغية والنقدية، واطلع على مؤلفات جمة، لها قيمتها وفائدها الكبيرة، كتبها أعلام الأدباء من قدامى ومحدثين، أحب علوم البلاغة ونهل من أفكار علمائها، وعرف اتجاهاتهم ومدارسهم، فكان من الطبعي أن يلتحق بقسم البلاغة والنقد.

اجتاز السنتين الأولى والثانية بنجاح، وصار له الحق في تسجيل درجة الدكتوراه، وأصبح لزاما عليه أن يعكف على التفتيش بين أفكار علمائها المبثوثة في كتبهم، حتى يعثر على موضوع يصلح لتسجيل درجة الدكتوراه، أراد أن يسجل في شخصية من أعلام القرن الثامن الهجري عن العلامة الزركشي (ت٧٩٤هـ) فكتابه "البرهان في علوم القرآن" وغيره من الكتب تحفل بالعديد من الآراء البلاغية، وإن لم تكن معروفة ومطروقة في ذلك الوقت لأحد من الباحثين، ولم يتناوله أحد بالدراسة والتمحيص.

وفي ظهر يوم من أيام الصيف والحرارة شديدة، والأسفلت يلمع من وهج الشمس، وما نفح من لهيب، والعرق يتفصد

حبات على الجباه، والطريق هادئ ساكن، كان عبد الدايم يسير مع أستاذه الشيخ منيع وكيل كلية اللغة العربية.

عبد الدايم ارتبط بأستاذه الشيخ منيع برباط وثيق أيـــام أن كان طالبا بالكلية، وازداد هذا الارتباط وبلغ أشـــده بعـــد أن عمل عبد الدايم بالأزهر.

التقى الشيخ منيع في الطريق أمام السور المحـــيط بالكليـــة بالشيخ راغب النوبي أستاذ البلاغة بالكلية، طلاب البلاغـــة في الدراسات العليا يتدافعون للفوز بالتسجيل معه، لشهرته الفائقة في مادة البلاغة، التي يرغب عبد الدايم أن يسجل بها.

لم يكن الشيخ راغب النوبي يعرف شيئا عن عبـــد الـــدايم، وعبد الدايم يود من صميم فؤاده أن يوافق الشيخ راغب على التسجيل معه، ويكون مشرفا على بحثه، الشيخ راغـــب كـــان يسير في محاذاة السور ذاهبا إلى منزله، فعرض عليه الشيخ منيع أن يشرف على رسالة الدكتوراه التي يزمع عبـــد الـــدايم أن يسجل فيها.

عبد الدايم يتعامل مع أستاذه الشيخ منيع كما يتعامل الابن البار مع أبيه الحاني، يتعامل معه بكل التبجيل والتقدير، ومـــن

هذا المنطلق عرف الشيخ راغب النوبي الصلة التي تربط عبد الدايم بشيخه منيع، الذي كان يترفق به، ويقدم له كل ما يستطيع من مساعدة، غير أنه لم يكن أستاذا في نفس التخصص الذي يود عبد الدايم أن يتخصص فيه، والشيخ راغب معروف بين طلبة الدراسات العليا أنه بحر في البلاغة، عركها وأفنى عمره بين أوراقها الصفراء، قلب أضابيرها، وعرف قضاياها، وحل ألغازها، وأصبح في موضع الفتيا من هذه المادة، كانت هذه الفكرة وهذه الرؤية طاغية على كل من يبغي التخصص فيها، هكذا كانت شهرته بين طلبة الدراسات العليا، ربما كثر الحديث عنه لكثرة المناسبات التي يذكر فيها علمه، وتفتيشه في كتب البلاغة، ويذكر الشيخ راغب في كل محفل أو مناسبة بعض الشخصيات الكبيرة الهامة في تاريخ البلاغة، كعبد القاهر الجرجاني، والزمخشري، والسكاكي، فيفتن الطلاب بمعلوماته القيمة المتشعبة في مادة البلاغة، ومن هنا كان تكالب الطلاب على طلب قبول الإشراف منه على رسائلهم، وتسابقوا فيما بينهم؛ ليظفر كل منهم بشرف أن يكون هو مشرفا عليه دون الأساتذة الآخرين.

أخبر عبد الدايم الشيخ راغب أنه وقع على اختيار شخصية كبيرة تعد من أعلام البلاغيين، اختار هذه الشخصية لتكـــون موضوعا لدراسته في الدكتوراه، لم يقبل منه هذا الاختيار، ورأى أن يختار موضوعا آخر فيه حيوية وعمق، وله تـــأثير في تـــاريخ البلاغة، أن يختار موضوعا يتميز بعرضه لقضايا بلاغية في عصر أو فترة من فترات الازدهار، أن يتحدث مثلا عن أثر اللغويين في البلاغة، أو النقاد، أو النحاة، أو الأصوليين، أو المفسرين، أو الفقهاء على البلاغة، أن يختار فئة من هذه الفئات، بما لها مـــن أهمية، وتأثير على سير البلاغة، وتحولها من عصر إلى عصر ومن شخصية إلى أخرى.

كانت الشمس في ذلك الوقت تلسع الرؤوس، وتزغلـــل الأبصار، لا يستطيع أن يتحمل حرارتها القائظة في ذلك الوقت شيخ أو طالب، أصبح الطريق خاليا من المارة، وليس أمام سور الكلية سوى ثلاثة أشخاص: الشيخ منيع، والشـــيخ راغـــب، وعبد الدايم، اختار عبد الدايم من الموضوعات التي عرضها عليه الشيخ راغب موضوع (أثر النحاة في البحث البلاغي)، وآثـــر عبد الدايم أن ينتهي بحثه بانتهاء القرن الرابع الهجري، ولكـــن

المشرف أصر ألا ينتهي البحث إلا بانتهاء القرن الخامس الهجري، لأن القرن الخامس يشمل عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، والبلاغة دون عبد القاهر الجرجاني ليست شيئا، وإن كان الشيخ راغب يرى أن يبتعد عبد الدايم عن هذا الموضوع لصعوبته الشديدة، أشفق عليه من الخوض في هذا الموضوع الصعب، أو الولوج فيه؛ لكثرة شخصياته التي تحتاج إلى دراسة متأنية عميقة، فضلا عن مصادرها المتعددة التي يصعب العثور عليها، ولكن عبد الدايم أصر على اختيار هذا الموضوع، رغم ما فيه من صعوبة ومشقة، اختاره كنوع من التحدي والإصرار، وأنه قادر على السير في مثل هذا الموضوع، واجتياز دروبه الصعبة، ومسالكه الضيقة الدقيقة.

عبد الدايم ثقته في نفسه كبيرة، ويعتقد في قرارة نفسه أنه قادر على تناول الموضوع والسير فيه، واجتياز مراحله من قرن إلى قرن، لم يجد الشيخ النوبي مفرا من أن يقبل الإشراف على هذا الموضوع، الذي اختاره عبد الدايم، وفي الطريق وعلى سور الكلية كتب عبد الدايم طلبا بموضوع الرسالة، ووافق سيادته على الإشراف ونوعيته، ووقع على الطلب، وبذلك انتهت

مشكلة اختيار الموضوع والإشراف عليه، تجاوز عبد الدايم هذه العقبة الكئود، التي كان من الممكن أن تستغرق شهورا، بل كان يمكن أن ينتهي العام الدراسي قبل أن يتم التسجيل لدرجة الدكتوراه، أو يظفر بموافقة المشرف، ولكن وجود الشيخ منيع وتدخله في الأمر، ورغبة الشيخ راغب في إرضاء وكيل الكلية، هو الذي هون من مشقة التسجيل وصعوبتها.

ظل عبد الدايم يعمل مدرسا للغة العربية بالمعهد الأزهري الإعدادي بالقاهرة، بمنطقة البراموني، والتدريس بصفة عامة في جميع مراحل التعليم بالأزهر: إعدادي، وثانوي وجامعي، لم يسبب مشكلة للعاملين به من تدريس أو أعمال إدارية، فلا يستغرق التدريس أكثر من أربعة أشهر فقط في العام الدراسي كله، ثم ينصرف الطلاب إلى بيوتهم للمذاكرة، والاستعداد للامتحان، كانت هذه طبيعة العمل في الأزهر، والأساتذة والمسئولون يعرفون ذلك، ولا يمكنهم الاعتراض على هذه العادة الموروثة من زمن طويل.

انتهز عبد الدايم هذه الفرصة السانحة للتأهب للبحث، وقراءة المراجع التي يعتمد عليها في اطلاعه، وإعداد المادة

العلمية لكتابة البحث، فلم يشغل نفسه ووقته في عمل آخــر، فالأساتذة الذين يعملون بالأزهر وهم من أصول ريفية، يرحلون إلى قراهم؛ ليباشروا أعمالهم في الزراعة والمحاصــيل والــري، والإشراف على تربية المواشي، وإعداد الأرض وما تتطلبه مــن ماء لريها، وغير ذلك من الأعمال اليومية.

أما الذين يبقون في الحضر، وليس لهم ذلك الارتباط الوثيق بالريف، ويتطلعون إلى عمل علمي، فقد كان تعطل الدراســة يهيئ لهم الزمن الكافي، كما كان الفراغ يسعفهم في تحقيق مــا يريدون من أعمال، وينجزون ما يريدون إنجــازه في أوقــات فراغهم.

كان هذا هو الشيء المألوف عند كل من يعمل بالتــدريس في الأزهر، فيجد الوقت الكافي لينجز مــا يريــد في طمأنينــة وتمهل، دون أن يكون وراءه رقيب أو عليه محاسب، فلا إدارة المعاهد الأزهرية تحاسبه، ولا شيخ المعهد يرهبه، ولا نظام العمل يطالبه بالحضور، ولا أحد يسأل إذا كان هذا المدرس تخلف أم حضر، جاء أم غاب عن الدراسة، هــذه العــادة اســتمرت، وصارت سنة متبعة، لا يجد فيها مسئول خروجــا عمــا ألفــه

الأزهر من رتابة، أو نشوزا عن الطريق الذي رسمه الزمن، وأقرته الأيام.

عبد الدايم واتته تلك الفرصة الذهبية الكاملة، لكي يتفرغ للعمل في رسالته، فالموضوع كبير وهام، ويشمل أعلاما من النحاة كالخليل بن أحمد،وسيبويه ،والفراء، والمبرد، والرماني ، وابن جني وعبد القاهر الجرجاني ، وغير ذلك من أعلام النحاة البلاغيين الذين عاشوا في القرون الخمسة الأولى، فكان البحث يستوجب أن يفرز النحاة من غيرهم، والذين تركوا أثرا بلاغيا عن الذين تركوا أثرا ضعيفا لا يكاد يذكر، كذلك كان من منهاج البحث أن يستبعد الذين تركوا أثرا بلاغيا ولم يكونوا نحاة، وغير ذلك من موجبات منهاج البحث، وكان يلتزم بدقة في كل ما يدخل في البحث، ويستبعد كل ما يخرج عنه سوى أن يصل علما من الأعلام بعلم آخر حتى لا تنقطع الصلة بين تطور البحث، وتصبح فيه فجوة تؤخذ عليه في بحثه.

هكذا كان يفكر عبد الدايم في كيفية السير في بحثه، وطريقة إتمامه، ذهب أول الأمر إلى دار الكتب المصرية؛ بحثا عن المراجع والمصادر التي تعوزه، يمكث فيها الساعات الطوال

يطلب كتابا معينا، ينتظر أكثر من ساعتين في الدار، ثم يأتي من يقول له: إن الدار ترفض إخراج هذا الكتاب، ولا تسمح بإعارته، فالدار لا يوجد بها غير نسخة واحدة لا تخرج أبدا ولا تعار لأحد، فاليوم يمضي والساعات تنقضي دون أن يستفيد شيئا، أو يخرج بكتاب يعينه على المضي في كتابة بحثه، الوقت يمضي هباء، ولم يجن منه شيئا، ولم يتقدم خطوة واحدة في طريق بحثه، وبعد تفكير مستمر قرر أن يشتري كل المصادر والمراجع وما يتاح من كتب للسير في البحث.

قادته خطاه إلى مكتبة عريقة بجوار مستشفي الجمهورية، بالقرب من معهد البراموني، الذي يعمل مدرسا فيه، مكتبة تضم مئات الكتب القديمة، طالما بحث عنها عبد الدايم، ولم يجدها في مكتبة من المكتبات، كتب تضم عصارة الفكر والثقافة التي أفرزها عقول كبار العلماء على مر العصور، لهم باع طويل في اللغة والنحو، والتفسير والحديث، والأدب والبلاغة، أناس عاشوا قبل التاريخ الهجري وبعده، وجد عبد الدايم بغيته من الكتب والمؤلفات الشهيرة، التي طمرت تحت أتربة القرون، وضاعت في غياهب النسيان.

تتكون هذه المكتبة من طابقين فيهما كل ما يشتهيه الفكر، ويلح على العقل من كنوز ثمينة، عبد الدايم إذا وجد الكتاب الذي يبحث عنه يحتضنه في ألفة شديدة، وسعادة غامرة، وكأنه عثر على أمنية تحققت بعد طول لهاث، يكفي أنه رأى الكتاب وما فيه من فكر صاحبه، ومهما دفع فيه من ثمن – وغالبا ما يكون الثمن متواضعا – فهو لا يساوي قيمته وما فيه من فكر مستنير، وذهن متوقد، ومعالجة طريفة أو جادة، يدفع فيه ما يطلبه صاحب المكتبة الحاج (خربوش)، رجل نحيل الجسم، أقرب إلى الطول منه إلى القصر، يلبس قلنسوة، ويأكل كلامه، ويدغم حروفه؛ لثلمة في أسنانه وهتم في فمه، يدلك على الكتب في كل فن، كتاب كتاب، يعرف أسماءها ومؤلفيها، وما تحويه من فكر، بل يعرض عليك ما يراه من كتب تفيدك في بحثك، وإن لم تجر هذه الكتب في خاطرك.

أصبح عبد الدايم يتردد على هذه المكتبة كل يوم، إلا إذا عنت له ظروف تمنعه عن ارتياد مكتبة الحاج "خربوش"، يفتش فيها كما يشتهي، ويصعد إلى الدور العلوي فينقب في الكتب، ويتطلع إلى الرفوف، وينزل الكتب عن أماكنها، يتصفحها

ويقلب في أوراقها، فإذا رأى أن الكتاب سيفيده في بحثه، أو يزيده في معرفته، عرض عليه ثمنه، وخرج به متأبطا له في يديه، يخرج من عنده كل يوم بكتاب أو أكثر من كتب التراث، يخرج بالكتاب محتضنا له، وكأنه يخشى أن ينفلت منه، أو يضيع، تلعب به الهواجس وتدور في رأسه الأوهام، فربما يقع منه هذا الكتاب القيم، ولا يستطيع أن يحصل على نسخة أخرى، فتتسرب منه فائدته العظمى، ولا يستطيع استردادها.

مكتبة خربوش العظيمة النادرة، التي تحوي كتب التراث وعيون المؤلفات، التي لا غنى لباحث عن ارتيادها، والنهل من معينها، تحتوي فنا وثقافة وعلما في كل مجال واتجاه.

* * *

ربما أضنى عبد الدايم البحث عن كتاب لم يجده عند الحاج خربوش، فيبحث عنه في المحافظات الأخرى، يخرج إليها صيفا، كبلطيم، ورأس البر، ودمياط، والإسكندرية، يستأجر دراجة يجوب بها البلد، فتحصل له متعتين: متعة التنقل في أرجاء البلد، وولوج أحيائها، ودروبها وشوارعها، ويمشي في مناكبها، ومتعة البحث عن أماكن المكتبات العامة والخاصة؛ للبحث عن بغيته،

وربما يمضي اليوم أجمعه أو الفترة كلها دون أن يعثر على كتاب واحد، يبحث عنه ويفيده في بحثه، وجد مكتبة للكتاب العراقي في معرض الكتاب المقام بجوار نادي المعلمين بالجزيرة، تعـرض كتبا من ذخائرها وتراثها، وطغت عليه الفرحة حين رأى كتابا لابن الأثير عنوانه "الجامع الكبير"، دخـل المكتبـة وتصـفح الكتاب، وطلب شراءه، وإن كان هذا الكتاب لا يتطلبه البحث بطريقة أساسية، إلا أنه مكمل للبحث؛لأن ابن الأثير(ت٦٣٧هـ) مؤلف هذا الكتاب جاء بعد الفترة التي يقوم عليها بحثه، غير أن المسئول عن المكتبة اعتذر عن بيع الكتاب؛ لأن الكتب للعرض فقط وليست للبيع، أخذ عنوان الأسـتاذين المحققـين: د/داود سلام، ود/جميل سعيد، وكان الأول عضوا في المجمع اللغـوي العراقي، فراسلهما وطلب شراء الكتاب ورجاهما إرسال نسخة منه؛ لحاجته الماسة إليه؛ لإتمام رسالته في الدكتوراه، وأنه علـى أتم استعداد لدفع ثمنه، وتكاليف إرساله، لم تمض أيام حتى جاءه البريد حافلا بهذا الكتاب على سبيل الهدية.

بعد أن حصل عبد الدايم على الدرجة العلمية أعير لدولـة الإمارات، وجمعته الصدف بالدكتور جميل سعيد، أحد محققـي

الكتاب، وكان عميدا للكلية التي يعمل بها عبد الدايم أستاذا مساعدا، وأخبره بقصة الكتاب، وأنه ما زال يذكر فضلهما عليه، وإرسال نسخة له على سبيل الهدية، فابتسم ابتسامة حلوة تعلوها المودة والصفاء، وقال لعبد الدايم: لقد كنت طالبا باحثا وأنت في أول الطريق، وفي حاجة إلى من يعينك ويشد من أزرك وأصبحت الآن أستاذا جامعيا، يعلم الطلاب الدرس الذي برعت فيه، ومهمتك الآن أن تقدم العون لأبنائك الطلاب، وتسدد ما عليك من دين.

* * *

بعد أن وافق الشيخ راغب النوبي على الإشراف على الرسالة التي اختار عنوانها بنفسه، أردف ذلك بقوله: قد يستغرق مثل هذا البحث زمنا طويلا، ويحتاج إلى بذل الجهد الكبير والعناية الكاملة، وحاجة البحث إلى المصادر قد يعز عليك العثور عليها، ولكن إذا وفقت وحصلت على ما تريد منها، وانتهيت من كتابة الرسالة تماما، ورتبتها كما ينبغي، بموضوعاتها، وشخصياتها، وخاتمتها، وفهارسها، إذا انتهيت من ذلك كله حددت موعدا للقائك، ولا أحب أن أراك قبل ذلك.

إذن يريد أن يعتمد عبد الدايم على نفسه كلية، ولا يستشيره في خطوات البحث، وإذا سار في خطوات البحث فكيف يعرف إذا كان سيره يرضيه ويوافق عليه أم لا، فربما ينقض غزل ما كتب، ويضطر إلى معاودة كتابته مرة أخرى، كان يعرف أن المشرف يكون في عون الباحث، يدله على الطريق، ويأخذ بيده، ويعمل على تدريبه، وتجنب الخطأ الذي قد يقع فيه، أما أن يتركه وشأنه وليس عليه سوى أن يقول رأيه بعد أن يتم كتابة الرسالة من المقدمة إلى الخاتمة، فهذا لا يخدم طريقة البحث والسير فيه.

كانت لهجة المشرف قاطعة حازمة، لا تحتمل التأويل أو الترجيح، لا يتصل به ولا يطلب معونته، ولا يعبر الطريق أمامه ولا يلتقي به قبل أن ينتهي من إتمامها.

دأب عبد الدايم على العمل في الموضوع الذي اختاره وكلف به، عمل بهمة كبيرة، ونشاط جم، كلما أتاحت له الظروف، وتهيأ الوقت أن يعمل بها، وقد ساعد على ذلك وقت الفراغ الذي يمنحه الأزهر للعاملين به، وعدم اشتغال المدرسين مدة كافية في معظم أيام العام الدراسي، في الوقت متسع للقراءة والاطلاع والتأمل، والتفكير والتحليل والكتابة، اطلع على كتب في الأدب والنحو واللغة والبلاغة، قرأ القديم منها

والحديث، ما يتصل بالبحث وما يقرب منه، ما يزيــده ثقافــة واطلاعا على موضوعات البحث، وقد يكون ما يقرأ خارجــا عن مجال بحثه، ولكنه يزيد البحث ثراءً، ويعمق في خطواته، فيه تأصيل للرسالة، فما يقرأه لا يضيع عبثا، بل يساعده من حيث لا يدري، فالثقافة العامة تعمل على اتساع الأفــق، وتشــعب الإدراك، وأشد ما يكون الباحث على قدر كــبير مــن هــذا الاتساع والتشعب.

كان عبد الدايم يقضي وقته منذ الصباح الباكر، والشــمس تسلل من مهدها، فتزيح غبشة الفجر، حتى تعم الكون بضيائها ودفئها، يعيش في بيته في مكان رحب متسع، تــوافرت فيــه الراحة والهدوء، والشمس المتدفقة الناعمة في الربيع والخريــف سواء، وتزداد الشمس حدة في الصــيف، ورقــة في الشــتاء، فيطوع الوقت للعمل، يجلس على مكتبه العريض، وينشر أوراق البحث أمامه على المكتب، ويفرد الكتب والمراجع والمصــادر التي يستعين بها، كان عبد الدايم متفهما لأفكار الشخصيات التي يتناولها منذ القرن الثاني الهجري، متتبعا خطاهم التي يســيرون عليها، متناغما مع آرائهم، التي قد تبدو غريبة في مجالهــا، إذا أعجب بشخصية عبر عن إعجابه بها، بإثبات محاسنها، وقفزاتها وتأملها، وإذا تاه بآراء علم من الأعلام أشار لذلك ونــوه بــه

ودل عليه، وإذا رأى كلاما مكررا وقولا معادا لا عمق فيه ولا أصالة، بين ما في أقوالها من تهافت وسطو، فنقل انسياقها ومتابعتها لغيرها دون أصالة أو ابتكار أو إبداع، لم يكن يثنيه عن العمل شيء يضعف من معنوياته ومثابرته على البحث والتحليل، والوصول إلى الرأي السليم، حتى يبرز مكانة الشخصية، ويضعها في مكانها الصحيح.

وهكذا سارت الأمور من علَم من الأعلام إلى علَم آخر، ومن قرن إلى قرن، حتى وصل إلى القرن الخامس الهجري، ثم طرق باب عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، وأدمن الطرق عليه، أدمن الطرق على باب عبد القاهر رأس البلاغيين، وقمتهم في الفكر، وشيخهم في الرأي، بما تركه من تراث ضخم جليل، حيث أسس نظرية النظم وأودعها أمانة بين يدي النقاد والبلاغيين، في كتابيه الخطرين "أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز" إلا أنهم لم يهتموا بفحواها، وأهملوها إهمالا ذريعا، فلم تمتد إليها الجسور، ولم يحمها النقاد من عصف الرياح، ولم يحاولوا إبرازها من بين آرائهم الغثة الميتة، ولم يلتفت إليها أحد، إلى أن قيض الله لها من بعثها من مرقدها في عصرنا الحديث.

* * *

{ ٩ }

كان عبد الدايم يقطن في مترل بحي شبرا بالقرب من جزيرة بدران، مواز لمحكمة زنانيري التي تنظر في الأحوال الشخصـــية، وبجوار مترله تربض قطعة أرض فضاء، تقع على ناصية تتعــدى مساحتها خمسمائة متر، بدأ صاحب الأرض يحفر لها الأساسات، ويقيم الأعمدة، ويبني الحوائط، في وقت مزامن للوقت الـــذي سلم فيه عبد الدايم رسالة الدكتوراه مكتوبة بخط اليد، بمقدمتها وموضوعاتها، وقروها، وفهارسها، ومراجعها، ومصـــادرها، في خمسمائة صفحة على وجه التقريب، الصفحات طوال، والخط واضح دقيق، يقرأ بسهولة ودون إجهاد، يعمل على تنفيذ رأي الشيخ المشرف، محققا أوامره بدقة كاملة، فلا يتصل به تليفونيا، أو يناقشه في موضوع البحث وكيفية السير فيه، أو الخطــوات التي يمليها عليه الموضوع، وتعهد بما أوجبه على نفسه من العزلة عن الأصدقاء، والبعد عن الأقرباء، وإنما اختلى بنفسه ومراجعه وكتبه؛ لأنه لا يأمن من سطوة ذراع المشرف، الذي يغير ويبدل في الموضوع كما يحلو له، فإذا حادثه في موضوع الرسالة فربما يغير من المنهاج الذي سار عليه عبد الدايم، فتنتقض الرسالة من

أولها لآخرها، وقد يكون هذا التغيير بدافع من موقفه كمشرف، مارس الإشراف على رسائل كثيرة، أو رأيه كأستاذ دون تبصر بالجهد الذي بذله عبد الدايم، فيريقه على عتبة آرائه الشخصية، دون إبداء أسباب لهذا العدول.

* * *

بعد أن أنهى عبد الدايم رسالته، اتصل تليفونيا بالشيخ راغب النوبي المشرف؛ ليخبره أنه أنجز الرسالة، وعلى استعداد لأن يقدمها له ويبدي رأيه فيها، التقى به في مبنى كلية اللغة العربية، وسلمه الرسالة مكتوبة بخط اليد، فإذا وافق على محتوياها، وقبل مضمونها، وسمح له في طبعها، ينسخها وتصبح معدة في صورها النهائية للمناقشة.

مع عبد الدايم طلاب علم وزملاء دراسات عليا في أقسام أخرى، كالأدب واللغة والنحو، إذا انتهى الباحث من إتمام الرسالة، وقدمها لأستاذه المشرف مكثت عنده شهرا أو يزيد قليلا، ثم يسمح له بطبع الرسالة، وتشكل لجنة لمناقشته، وهي مكونة من أستاذ يعمل خارج الكلية التي صدر منها البحث، وأستاذين من داخل الكلية،والأمور تجري في أعنتها في لين

ويسر دون تعقيد أو تباطؤ أو إهـــمال، هكذا ســـاد العـــرف بين طلاب الدراسات العليا.

سلم عبد الدايم رسالته للشيخ راغب، وانتظر بضعة أشـــهر عسى أن يلتقي به ويحدد له موعدا ليناقشه فيما كتب، وكيفية سيره في البحث والنتائج التي توصل إليها، بلغت المـــدة ســـتة أشهر عانى فيها عبد الدايم ما عانى من قلق وترقب وتردد، حتى بلغ منه الجهد مبلغا شديدا، وشعر باليأس والإحباط، حين سعى مع الشيخ منيع ليشرف الشيخ النوبي على رسالته، كان يود أن ينجز رسالته في وقت لا يتعدى سنتين، فكان يعمل ليلا ونهـــارا دون انقطاع، ولكن الله أراد شيئا آخر، أراد أن تعطل الرسالة وتقف في مكانها دون تقدم، أراد عبد الدايم أن يعرف هل هـــو أصاب أم أخطأ؟ هل وفق أم تعثر؟ هل سار سيرا مرضيا أم ضل متخبطا بلا هدف؟

اتصل بالأستاذ المشرف تليفونيا، ناقشه المشرف في مسألة قد استقر الرأي عليها في كتب البلاغة، بأن الفصل والوصـــل يجري في الجمل فقط دون المفردات، ولم يطالع الجديد في هـــذه المسألة، وهو أن الفصل والوصل يجري في المفردات كما يجري

في الجمل، لا فرق بين الاثنين ولا تفرقة، والأمثلة متـــوافرة في الاتجاهين، بأدلة قاطعة لا تدع مجالا للشك، أو الطعن فيها، وقد تبع هذا الرأي تغيير لتعريف معنى الفصل والوصل بمـــا يقبـــل الجمل والمفردات معا، كانت هذه المسألة البلاغية قد طرقهـــا عبد الدايم في الصفحة الأربعين، والرسالة خمسمائة صفحة، فبعد هذه الفترة الطويلة، بعد ستة أشهر من وجود الرسالة بين يدي المشرف يناقشه في الصفحة الأربعين! كأنه لم يبدأ في قراءها بعد، وفي مسألة ليست لها كل هذه الأهمية، ومع ذلـــك لم يعرفهـــا الشيخ راغب، ولم يتوقف عند رأي صار بدهيا، تحدثت عنـــه كثير من المراجع، ما سبب هذا التسويف؟ قال له أحد الطلاب: إنه لا يجد الوقت الكافي للقراءة، فهو يعمل واسطة بين الناس في شراء الأراضي وبيعها، ولم يهتم عبد الـــدايم إذا كـــان هـــذا صحيحا أو مدخولا.

تحدث الأستاذ الشيخ راغب مع عبد الدايم قائلا له: كيف توصلت إلى أن الفصل والوصل يجري في المفردات، وإذا كـــان يجري في المفردات والجمل فكيف تعرفه إذن؟ أجاب عبد الدايم: قال الدسوقي في شروح التلخيص: إن العطـــف يكـــون بـــين

الجملتين كما يكون بين المفردين، ولذا ينبغي أن يتغير التعريف المذكور في كتب البلاغة ويصير "عطف بعض الكلام على بعض والفصل تركه"، وحصره بين الجمل ليس دقيقــا، ويفتقــر إلى شيء من التعديل، حتى يضم في رحابه المفردات أيضا.

تحسر عبد الدايم على فوات هذه المدة الطويلة الممطوطة، التي تجاوزت ستة أشهر دون أيــة فائــدة، ســوى التعطيــل والتسويف وعدم مراعاة ظروف الطلاب وأحوالهم، فطــلاب الأقسام الأخرى كالنحو والأدب واللغة لا تستغرق الرسالة في يد المشرفين أكثر من شهرين بحال من الأحــوال، ثم يســمح للطالب بنسخها على الآلة الكاتبة، وتشكل لجنــة لمناقشــتها بمجرد تسليم النسخة في حالتها الأخيرة، وإذا كانت الأربعــين صفحة تستغرق ستة أشهر فما الوقت الذي تتطلبــه الرســالة كلها؟ كم من الشهور سوف تنقضي قبل أن يتم الشيخ راغب النوبي قراءهّا؟ قد يضيع العمر كله قبل أن ينتهي من القــراءة، وعندئذ لن يجني الثمرة من وراء هذا الجهد الدائم المتصل، الذي حرمه من أشياء كثيرة يحبها فانصرف عنها، وأجلها لحين آخــر بعد أن يناقش رسالته، إن الأرض الخواء المجاورة لمترله تم بناؤها

وأصبحت عمارة فخمة وصرح كـبير، أقيمـت بخرسـاناتها وحوائطها من أربعة طوابق، وكل طابق به شقتان، بنيت في هذه الفترة، ولم يقرأ المشرف سوى أربعين صفحة!!

طار لب عبد الدايم ولم يثب إليه رشده، ولا يدري ماذا قال للمشرف، كل ما يذكره أنه طلب منه أن يسترد رسالته، وليس في حاجة إلى حصوله على الدرجة العلميـة الـتي تسـببت في شعوره باليأس والإحباط، وإذا حصل وتسلم منـه الرسـالة، فسيلقيها في أول مصرف يصادفه في الطريق، أو أول بالوعـة تلقى فيها الفضلات، حتى يقطع آخر خيط يربطـه بـالأزهر وأساتذته، قال هذا الكلام أو هذا الهـراء في الهـاتف دون أن يشعر هل أخطأ أم أصاب في هذا القول؟ فقد كان منفعلا أشد الانفعال، ولم يستطع أن يتحكم في أعصابه، ويسيطر عليها، قال هذا الكلام والحوار ملتهب بين الاثنين، فإذا بالخط التليفـوني ينقطع، لأن أسلاكه ضعيفة متهرئة، وأية حركة خفيفة أو مجرد تلامس يقطع الاتصال بينهما، فعاود عبد الدايم المكالمة خشـية أن يفهم المشرف أنه قطع عليه المكالمة، فيتهمه بقلـة الـذوق، وسوء التربية، واعتذر له عن هذا الانقطاع أثناء المكالمة.

* * *

انقضى هذا اليوم بخيره وشره، فقد أحس عبد الـــدايم أن شحنة الغضب التي ملأت قلبه قد تسللت خارج نفسه، وقـــد أفرغها في وجه أستاذه المشرف، الذي ضغط عليه بإهماله طيلة هذا الوقت، الذي يربو على ستة أشهر، دون أن يلم بشيء في الرسالة، هذه الشرارة التي فجرها عبد الدايم فاندلعت نيرانها في ثياب المشرف وأمسكت بتلابيبه، دون أن يطفئها أو يحـــاول، تشبثت بصدره وأوغرته عليه، بقـــي وهـــج حـــرارة المكالمـــة التليفونية التي جرت بالأمس، وتأثيرها على الأستاذ المشـــرف، فذهب صباح الغد إلى مبنى الكلية غاضبا ثائرا يتحـــدث عـــن عقوق الطلاب الذين لا يتسمون بشيء من الوفـــاء، ودخـــل مكتب الشيخ منيع وكيل الكلية الذي عمل على تسهيل مهمة إشراف الشيخ النوبي على عبد الدايم، وهو يستشيط غضبا على هذا الطالب الجاحد الذي أغلق الهاتف أمس في وجهه، رغـــم ادعائه أنه انقطع من تلقاء نفسه، إنه كـــاذب ومـــدع، وقـــد وصلت به الجرأة ليقول له: اعطني الرسالة لألقيها بنفســـي في أول بالوعة للقاذورات أصادفها في طريقي، ألقيها دون تـــردد

فلست في حاجة إلى هذه الدكتوراه، ولا إلى عون الشيخ المشرف، ولا إلى جامعتكم، حتى لا يكون لأحد أو هيئة الفضل عليّ، إن العلم الحقيقي كان ماثلا في الأزهر في عهده القديم، وقت أن كان يقوم بالتدريس فيه شيوخ أكفاء لهم قيمتهم العلمية، وجرأتهم الصريحة التي لا تقف عند حد، ولا تخشى من أحد مهما كانت مكانته، والآن لم يعد في الأزهر من تلك النخبة العظيمة أحد من هؤلاء الأساتذة الكبار، فالوضع اختلف، والعلم بأصالته ولى، ولم يعد كما كان أيام أن يحفظ شيخ النحو كتاب الأشموني في النحو بأجزائه الأربعة، بصحفه الطويلة الممتلئة بالخط الدقيق، يحفظه عن ظهر قلب، وكتب البلاغة يهضمها أستاذ البلاغة ويتمثلها، ويخرجها لطلابه شرابا مصفي، رغم ما فيها من تعقيد وصعوبة، أما الآن فليست عندهم الكفاية العلمية التي يحتاج إليها الطلاب، ولا التوجيه السليم الذي يساعد على إبراز الرسالة، أو الملكة التي يهبها الله لأصحاب الفكر، وليس لمن يكتفي بالحفظ.

هذا الطالب العاق الذي يتطاول على أساتذته لم أصادف مثله طيلة حياتي العلمية بالأزهر.

وأخذ يردد هذا الكلام لكل من يصادفه في غرفة الأساتذة ، أو قاعة المحاضرات، أو فناء المبنى إذا التقى بأستاذ أو موظف يعمل بالجامعة، أبرز عبد الدايم في صورة كريهة، تتمثل فيها كل معاني السخط، وقلة احترامه لشيوخه الأجلاء.

كانت أعصاب عبد الدايم يسودها التوتر والقلق، وشعر بالضيق والحنق، فقد أخبره أستاذ في الكلية زميل للأستاذ راغب – التقى به عرضا في فناء الكلية وسار معه في الطريق– أن الشيخ راغب سيؤخر مناقشة رسالتك، حتى ينتهي زميل لك من رسالته وتتم مناقشتها، ولن يتفرغ لك أو لرسالتك قبل ذلك.

عبد الدايم يعلم على سبيل القطع أن هذا الزميل لم يفرغ بعد من رسالته، وأمامه عام كامل حتى ينتهي منها، ويتقدم بها للمشرف، إذا صح هذا القول الذي عرفه عبد الدايم مصادفة من الأستاذ الشيخ يونس مغاوري، فمعنى هذا أنه سينتظر عاما آخر على الأقل، فتوترت أعصابه، وتحطمت صورة رجال الأزهر في نفسه، وتهاوت القيم التي يحاولون غرسها في نفوس طلابهم.

لم يكذب عبد الدايم ما قاله الشيخ يـونس، عمـا يكـنّ المشرف في نفسه وما يضمره من تأخير رسالته، فمـا الـذي يدعوه
لأن يكذب على زميله، ويتقول عنه شيئا لم يقله، أو يلمح بـه، وكان من جراء ذلك أن بدر منه بالأمس ما حدث مع شـيخه المشرف.

وربما يكون قد قال الشيخ يونس زميل الشيخ راغب ما قال بسبب ما بين الزملاء من تنافس أو احتكاك مما يستوجب هـذه الفرية، فكل ما يجري بين الأساتذة لا يطلع عليه الطلاب، ولا يسبرون أغواره، ولا يدركون أبعاده، ولا يعرفون كيف تسـير الأمور بين الأساتذة بخيرها وشرها، وحلوها ومرها، بهـدوئها واضطرابها، وعبد الدايم لا يدرك شيئا عنها ولا يهمه أن يعرفها أو يلم بها، فالظروف العلمية هي التي تحدد علاقته بشيخه، وما عدا ذلك فلا شأن له به من قريب أو بعيد.

اعتذر عبد الدايم عما بدر منه وأسف لما حـدث منـه في الهاتف، وأخبره بما قال زميله، والسبب الذي دعاه إلى تـأخير قراءة البحث.

بدأ الأستاذ المشرف يهتم بتلميذه عبد الدايم، وكلما رآه في الكلية سأله عن مسألة من المسائل الـــتي وردت في البحـــث؛ استفسارا عنها، أو معرفة المصدر الذي استقى منه هذه المعلومة، أو من أين حصل على هذا المرجع، وغير ذلك مما يتعلق بســـير البحث، ومرة سأله المشرف عن مسألة تتعلق بالتشبيه المحذوف أداة الشبه، والوجه، أي التشبيه البليغ، كأنه يود أن يقف على مدى تحصيله، ورغم أن هذه المسألة كانت مــذكورة ضـــمن صفحات البحث، إلا أنه أراد أن يفتش عن تحصيله للمعلومات البلاغية، التي تضمها الرسالة، وهل وقف على جذور المســـألة وتشعبها، واختلاف آراء العلماء فيها، يريد أن يعرف إذا كان ملما بها إلماما تاما، أم مجرد وقوف عابر شأن القارئ العـــادي، الذي لا يستبطن الأمور ولا يتعمقها، فذكر رأيه فيها وتحليلـــه لها، وأدلى باختلاف وجهة نظر العلماء فيها، مما جعل المشـــرف يطمئن لحسن سيره في الرسالة.

رأى المشرف في الرسالة آراء الخليل بن أحمد الفراهيـــدي مستقاة من كتاب سيبويه، حين يشير أن هذا هو قول الخليـــل، وآراء سيبويه البلاغية مبسوطة واضـــحة في كتابـــه المســـمى

بـ"الكتاب"، وأقوال المبرد في أضرب التشبيه وأنواعه في كتابه "الكامل"، وما جاء في كتبه من ابتكارات تتعلق بالبلاغة واللغة، وابن جني الذي يعد بحرا من بحور البلاغة، وتفوقه على السابقين في اتساع نظرته، وتوغله في الفكر البلاغي، وما جاء في كتـابي عبد القاهر "دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة" من تحليل رائـع، وبيان نظرية النظم، وتأكيده على تحليل خطواتهـا، حـين رأى المشرف ما تطرق إليه من هذه الشخصيات الكبيرة، وما تحمله من معان ضخمة، وما لها من جذور عميقة في تناولها للمسـائل البلاغية، أيقن أن عبد الدايم توصل في بحثه إلى أن وضع يـده على آراء جديدة، واطمأن كل الاطمئنان على حسن سيره في الدراسة، أذن له أن يطبع الرسالة ويعـدها لتقـديمها للكليـة وتشكيل لجنة لمناقشتها.

تمت مناقشة عبد الدايم وكان موفقا فيها غايـة التوفيـق، وانبهرت اللجنة بالنتائج التي توصل إليها، وأثنت عليـه ثنـاء جميلا، ومنحته مرتبة الشرف الأولى.

كان عدد الحاضرين جما وفيرا، فامتلأت القاعة بالحاضرين، وربما كان السبب في كثرة الحضور هي تلك الإعلانات الـتي

امتلأت بها صحف الصباح، وتحدد فيها موعد المناقشة، بعد المناقشة كتبت إحدى الصحف اليومية تتحدث عن المناقشة وسيرها، وقرظت الرسالة، وأبرزت الجهد المبذول فيها، ووضعت صورة لأعضاء اللجنة الثلاثة، وبجوارهم عبد الدايم، مما جعل موضوع الرسالة يذيع بين أساتذة الكلية، وأعدت الإذاعة لقاء مع عبد الدايم، تحدث فيه عن الرسالة، وما تطرقت إليه من موضوعات وشخصيات وأفكار.

بعد حصول عبد الدايم على درجة الدكتوراه، انتظر وقتا طويلا للإعلان عن درجة في تخصصه يتقدم فيها، ويحتل مكانه في الكلية كعضو في هيئة التدريس.

وصل إلى علمه خلو درجة في القسم، وسيعلن عنها بعد فترة وجيزة، ولكن الأستاذ المشرف الذي صار وكيلا للكلية منع الإعلان عن هذه الدرجة وحجبها؛ لأنه ينتظر حصول أحد تلاميذه المقربين، ينتظر حتى يفرغ من كتابة رسالته، ويناقشها، ثم يعلن عن الدرجة في الصحف، لينالها وتكون له هو، وليست من نصيب عبد الدايم.

وانتظر عبد الدايم الدرجة عاما كاملا دون إعلان عنها حتى تم المراد، ونوقش تلميذه المقرب، وعين في الدرجة الخاوية، كان

ذلك بعد حصول عبد الدايم على الدكتوراه بعام كامل، بينما مضى شهر واحد لحصول الزميل عليها.

صبر عبد الدايم على مضض من عدم التعيين، فهو لم يكن يريد إثارة المشكلات، التي قد تقف عقبة في طريق تعيينه، وإذا فاته التعيين في المرة السابقة فلن يفوته في الدرجة اللاحقة.

مرت الأيام والشهور، وعام كامل توفي في أثره أحد أعضاء القسم، توفي فجأة دون مرض أصابه، وهو في خرط الشباب، وزهرة العمر، حزن زملاؤه وتلاميذه، ومضت الأيام بطيئة ثقيلة حتى تكشفت حقيقة الأستاذ المشرف التي يضمرها، وظهرت رغبته الشديدة لتعيين شخص آخر عرف عنه بين طلبة الدراسات العليا أنه لم يكن على صلة وثيقة بالعلم، ولم يكن على علاقة جدية بالبحث العلمي، ولكنه على الرغم من ذلك كانت صلته وثيقة بأساتذة الكلية، يهش لهم في الحديث، ويزين لهم القول، ويقدم لهم كل ما يطلبون من خدمات، ومن جهة أخرى يشعرهم بأنه "مسنود"، وعلى صلة بالمسئولين في الدولة، وأنه عضو بالحزب الحاكم، ويستطيع أن يجري اتصالاته بهم إذا احتاجوا لتحقيق أمر ما، فقد كان يجالس فلانا المسئول بالأمس

على المقهى، وفلانا بالنادي، والتقى بعلاّن في مبنى الاتحاد الاشتراكي يحادثه في شأن من الشئون الهامة، التي يتعلق بها مصير البلد، وفي بعض الأحيان كان يلتقط الهاتف من مكتب الأستاذ العميد ويتظاهر بأنه يتصل برجل مهم في الدولة، ذي شخصية كبيرة،أو حيثية عظيمة في الاتحاد الاشتراكي، ويفتعل حوارا ملؤه البشاشة والترحاب، يجري بينه وبين المسئول؛ ليوهم العميد والجالسين في غرفته من الشيوخ بأنه على علاقة متينة وصداقة قوية بمن يحادثه، والشيوخ رجال يتسمون بالطيبة، ويصدقون ما يسمعون في الهاتف، دون أي شك أو تردد بصحة ما يقال، فهم لا يعرفون اختلاق المواقف، ولا حبكة الموضوع، ولا التظاهر بشيء بعيد عن خواطرهم، فيأخذون بما يتردد على أسماعهم في الهاتف، ويعملون حسابا لسطوته عند سماع هذا الحديث.

استقر في أعماق الشيوخ أن النميسي – وهم يعرفون حق المعرفة أنه ليس عالما ولا يحب العلم، ولا يملك منه إلا أقل القليل، ولكنه يملك من الخداع والدهاء والرياء الشيء الكثير، حتى إنهم يصدقون عنه كل ما يقول أو يفعل – هو من

الواصلين في الدولة؛ لذا فهم يخشون بأسه وسطوته، ومعارفه ونفوذه وسلطانه، وليس لدى أحدهم استعداد لأن يجعل من نفسه ضحية له، فينال منه ما يمكن أن ينال من اضطهاد أو أذى، فيبلغ المسئولين عن واحد من شيوخه دون جريرة أو ذنب، فعملوا على مداراته خوفا من سوء الظن بهم، فقد يؤخذ الشيخ منهم ولا يعرف أحد عنه شيئا، حتى أقرب الناس إليه.

عندما خلت الدرجة في القسم لم يجد النميسي صعوبة في الوثوب إليها، وأن يحتل مكانا بين هيئة التدريس، وأصبح عبد الدايم بعيدا عن الكلية سنة أخرى، بعد خلو درجة كان يظن أنها ستكون من حقه، وأنه أولى بها من غيره. ولكن ماذا يفعل والوساطة طغت على كل عمل جاد مستقيم؟ فلعبت دورا هاما في كل مرافق الحياة حتى المؤسسات العلمية، التي ينبغي أن تكون بمعزل عن العمل الشخصي، وتبتعد عن المحسوبية، والوساطة بالكلية أصبحت ملاذا للهدم، وضياعا لتكافؤ الفرص والتمسك بالحق، والعمل الجدير باحتلال المكانة اللائقة به دون غيره من الأعمال التي تتسم بالهبوط والضعف.

* * *

كانت هذه أول فرصة حقيقية تصادف عبد الدايم، ويعتبر نفسه أحق بها من غيره، ممن يعرفون الطريق جيدا إلى مصالحهم الشخصية، وسبيل الوصول إلى ما يريدون تحقيقه.

حصل النميسي على الدرجة، وعين مدرسا في القسم، ليس عن طريق الجدارة والبحث الجاد وسهر الليالي، وإنما كان عن طريق الوصولية، والقفز بكل ما يمتلك من وسيلة حتى بلغ ما أراد.

لم يتطرق اليأس إلى قلب عبد الدايم لأنه لم يعين بالجامعة، ولم تستبد به الهواجس، رغم الظروف القاتمة التي انتابته وسدت طريقه، فهو لا يعرف كيف يصل إلى ما يريد بهذه الأساليب التي اعتاد عليها بعض الزملاء كالنميسي، وتدرب عليها منذ الصغر وأول الشباب، فنفس عبد الدايم وطباعه لم تكن تألف هذه الطريقة، ولم تسلكها من قبل، وهو يعتز بنفسه ولا يسمح لها أن تهتز، حتى وإن أفسح الطريق وتمكن بذلك الحصول على ما يبغي.

بذل عبد الدايم كل ما يدعوه إليه ضميره من إتقان في البحث، والتفرغ له طوال هذه الفترة التي قضاها في تنفيذ

خطوات الرسالة، حتى أتمها على خير وجه، واطمأنت نفسه كل الاطمئنان على ما بذل فيها من جهد دائب، وقريحة صافية، وتوصل إلى نتائج رضيت عليها نفسه، ولجنة المناقشة التي أيدتها واستحسنتها، واستمر يحادث نفسه، تكفيه هذه الشهادة لعمله الدؤوب المبتكر، هذه اللجنة التي أعلنت نتيجة البحث المشرفة لا تملك من أمرها شيئا في تعيين شخص أو استبعاده، فعملها ينحصر في إبراز شخصية الباحث، وتقييم الرسالة، أما التعيين فليس من اختصاصها.

تقدم اثنان لشغل الدرجة التي شغرت في القسم بوفاة الدكتور المدرس، أراد عبد الدايم أن يتقدم بأوراقه للكلية، ولكن المختص رفض قبولها؛ لأن الشيخ راغب طلب منه ذلك، من فوره صعد عبد الدايم إلى مكتب رئيس الجامعة، وأخبره بما حدث، فاتصل تليفونيا يأمر الشيخ راغب بقبول الأوراق، فأذعن له وقبلها دون اعتراض، التقى به في غرفته، وكان عنده الموظف الذي أنكر تماما أن الشيخ راغب النوبي طلب منه أن يرفض قبول الأوراق، ثم قال الشيخ راغب بابتسامة باهتة صفراء: لقد قدمت أوراقك، ولكن تعيينك في الكلية لن يتم

(وابقى قابلني)، رد عليه عبد الدايم: لقد أردتَ ألا أتقدم بأوراقي، ولكني تقدمت بها رغم إصرارك بعدم قبولها، وأنا لم أبغ أكثر من ذلك، وأنت لم تحقق هدفك.

في مجلس الكلية رأى المشرف والعميد أن النميسي هو أحق بالتعيين في هذه الدرجة، وسكت جميع الحاضرين عن إبداء رأيهم، ولم يتخذوا موقفا؛ بل السلبية طغت على قلوبهم وأمسكت ألسنتهم، فماذا يجني الأستاذ من وقوفه بجوار الحق؟؟ وماذا يكسب لو عادى زميل له في الكلية، وخاصة إذا كان وكيلا أو عميدا لها؟؟ وماذا يربح لو وقف ضد رغبة واحد منهم؟ ولماذا يعرض نفسه لسهام قد يطلقها وكيل الكلية فتضيع بعض مصالحه؟ سهام يسددها إلى صدر كل من يعارضه، أو يقف ضد تحقيق رغباته، وكان طبعيا أن ينتصر رأي الوكيل في المجلس، ويحقق ما أراد من تعيين النميسي الذي بدا متعاظما مزهوا يملأ الخيلاء نفسه، فكلمات الثناء التي يزجيها للأستاذ الوكيل في كل وقت، وتقديم الخدمات له المرهون تنفيذها بإشارة من إصبعه، أو التلويح بالقيام بما يريد، فيلبيها على الفور ضاربا بالمثل العليا والقيم الأخلاقية عرض الحائط، وهي القيم

التي يحرص على وجودها كل من عاش داخل الحرم الجامعي، وعرف قيمه ومبادئه.

عميد الكلية وقف مؤازرًا لوكيله المشرف، يؤيده في رأيه بتعيين النميسي المنافس لعبد الدايم، فهو يستطيع الولوج إلى قلبه بأقرب الوسائل وأكثرها فعالية، ويجيد التعامل مع الرؤساء أو من يحيط بهم من الأصدقاء.

هذا العميد برز ذات مرة من مكتبه الوثير، ووقف في بهو الكلية الفسيح، وهو المكان الذي يلجه طلاب الكلية في ذهابهم وإيابهم إلى المحاضرات أو إلى منازلهم، يرفع صوته كأنه وقف خطيبا أمام الجمع الحاشد من الطلاب؛ معلنا أن الكلية لن تفتح أبوابها يوما لعبد الدايم، فهي محرمة عليه، ولن يعين فيها أبدا.

بلغ عبد الدايم هذا الكلام ولم يدر ما السبب، ولم يعرف الدافع لهذا القول، فربما كانت وشاية أطلقها النميسي وأسر بها في أذن سيادة العميد، فأغضبته وجعلته ينتفض ويخرج عن طوره ومكانته كعميد له مكانته واحترامه.

وصل هذا القول الغريب، أو هذا الكلام الشاذ بحذافيره إلى سمع عبد الدايم، وعجب أن يقول العميد مثل هذا القول، فهو يعلم على سبيل القطع أنه مهما طال به الأمد في عمادة الكلية

فسيتركها يوما ما ويأتي غيره، ولن يبقى في هذا المنصب أبـــد الدهر، ولو دامت العمادة لغيره ما وصلت إليه، هـــذا المثـــل يعرفه سيادة العميد جيدا؛ لأنه تربى في الريف وعاشـــر أهلـــه، وتقلب في مناصب الدولة، وخبر منها ما يحسن وما يسيء، كما أن عبد الدايم مهما طال به الوقت خارج الكلية فقد يأتي يـــوم ويحتل مكانا فيها، ويصبح عبد الدايم داخل الكلية، والعميد ولو بقي في منصبه حتى يبلغ سن المعاش، سيترك العمادة، ويتخلـــى عنها راضيا أو كارها، هذه هي سنة الحيـــاة، ومـــآل الـــذين يتنازعون على أمور يرونها بين أيديهم نائمة في أحضانهم، فـــإذا هي تفلت منهم غدا أو بعد غد، وتصير كقبض الريح، لا يبقى منها شيء، إنهم يتناسون ما تخفيه الأيام، ويدبره الزمن، حـــتى يظنوا أن ما هم فيه دائم مستمر، لا يزول أبدا ولا ينقطع .

إذا دخل وقت صلاة الظهر وأذن المؤذن للصلاة كان العميد يطلب من النميسي أن يؤم الصلاة، ويجعل منه إماما لـــه ولمـــن حضر في غرفته، فالنميسي من أصول طيبة، وهـــو جـــدير أن يقتدى به في الصلاة، هذا ما يردده العميد ويؤمن عليه الحاضرون.

* * *

أمسى واضحا أن عبد الدايم لم يحالفه الحظ، وأصبح من المؤكد أنه لن يعين في الجامعة، وليس السبب ضعفا في تخصصه، أو قلة في ثقافته، أو ترديا في أخلاقه، بل كان السبب في عزله عن الكلية أن طباعه وأخلاقه لم تكن تسمح بمجاراة اتجاه الشيخ راغب وميوله، التي كان يراها عبد الدايم بعيدة عنه، لا تتفق مع شخصيته وتربيته، فلم يتفق معه في رأي، ولم يجر في ركابه كالآخرين، فإذا رأى في نفسه ما يخالف الأستاذ راغب، أعلن عن رأيه صراحة دون مواربة، وعبر عنه بدافع من طبعه، وما عرف به من مسلك، دون رهبة من أحد، لم يكن هواه يسير على هوى الشيخ راغب النوبي، الذي رفض أن يعينه في الجامعة رفضا قاطعا، ووضع العراقيل في طريقه، وشق آبارا ليعثر فيها عبد الدايم، ولا يستطيع أن ينهض بعد ذلك أبدا.

طال الوقت دون أن تلوح في الأفق بادرة أمل، أو شعاع حتى ولو كان واهيا يبشر بتحقيق رغبته، كان السواد حالكا، يرسم صورة لمستقبل كئيب، يغل عنق عبد الدايم، فلا يقدر على التنفس، أراد أن يتخلص من هذا الضيق الذي يكاد يخنقه، فقصد بيت الله الحرام يتقرب إلى ربه، يتمسح بأركان الكعبة،

ويشرب من ماء زمزم، ويزور قبر رسول الله صـــلى الله عليـــه وسلم بالمدينة، حتى تنكشف الغمة، وتزول الغشاوة التي غطت أعين الناس فلا يستريحون إلا إلى الضغينة والغل،والظلم الـــذي يساورهم في أحلامهم، فتنشط أذهانهم عند التقائهم بالناس في صحوهم، ويطبقون ما رأوه في منامهم على من يصـــادفهم في نهارهم.

تعلق عبد الدايم بأستار الكعبة، وسأل الله أن يبعد عن طريقه ويزيح عنه كل ما تسبب في الوقوف ضده، أو سلبه حقـــه، أو هضم جهده دون وازع من ضمير، دعا ربه أن يرد إليه حقـــه السليب، الذي انتزعه من لا يخشاه ولا يرعاه، وأن يجعل مصيره مثل المصير الذي ألحقه به دون ذنب أو ارتكاب جريرة، إن الله يمهل ولا يهمل، ويتوعد كل من وقف في وجه الحق، ومال إلى جانب الباطل، فالله مع كل مظلوم، ويقف بالمرصاد لكل ظالم، ولن يفلت من عقابه أحد مهما تجبر وتكبر، وتعاظم وتفاخر، يا مطلع على نوايا كل قلب أثيم، سارع بأن تأخذ بناصية الـــذين يشاقونك، ولا يرعون لك عهدا ولا ذمة، لا يحققون عدلا ولا يقيمون وزنا لصاحب حق، اعتمد عبد الدايم على نفسه الضئيلة

الكسيرة، فلم يتمسح بمسئول، ولم يلجأ إلى حماية كبير أو عظيم، ولم يتوار في بطانة لئيم، اللهم اشدد وطأتك على كل مراء وانتهازي، يحسن القفز على ظهور الآخرين، ويعلو أكتافهم، لا يبغي سوى إرضاء من لا حق لهم على حساب أصحاب الحق، فأنت القوي المنتقم الجبار، تدع الناس على مشاربهم فيعيثون في الأرض فسادا، ثم تأخذهم فجأة بعقوبتك فتصيبهم بمرض ليس له دافع، أو مأزق ليس منه مخرج.

ارتاحت نفس عبد الدايم واطمأن قلبه بعد أن ناجى ربه بهذا النداء الخفي، وترك الأمر كله بين يدي الله الرحيم بعباده.

عاد عبد الدايم من مكة بعد أن أدى شعائر الحج، سمع أن الشيخ راغب النوبي قد ألم به مرض عضال أقعده الفراش فترة من الزمن العصيب، لم يقدر فيها أن يقابل أحدا ولا يرى سوى الأطباء الذين يعالجونه، أصيب بشلل نصفي، فتعثر لسانه البليغ، وارتعشت يداه الآثمتان، وزاغت عيناه الجسورتان، يحاصرها تأنيب الضمير، إذا التقت نظراتك بعينيه الذابلتين رأيت فيهما ترقرق الدموع زاحفة تكاد تبلل وجهه، وظهر عليه الانهزام والانكسار، أذله المرض وقهر جسده، وسيطر على

أطرافه، شعر الشيخ النوبي في قرارة نفسه أن الله غير راض عن أفعاله، فربما ظلم شخصا لا يعرف كيف يداهن أحدا، أو يماري مخلوقا، حطم إنسانا لا يعرف الملاينة ولا المهادنة، لا يعرف سوى الحق، ولو لحقه ضرر بسببه، أو أصابه أذى من جرائه.

شوهد الشيخ راغب النوبي يحاول النزول من عربته الفرنسية السوداء، بصحبة ابنه اليافع، وهو يحنو عليه ويحتويه بين يديه، يرافقه حتى باب الكلية، متأبطا ذراعه، يصعد به الدرج في رفق شديد، وحذر كبير، يصعد ببطء درجة درجة، خشية أن يرتطم بالدرج، أو يهوي على درجات السلم، يتوقف على الدرج لحظة حتى يسترد أنفاسه ثم يستأنف السير، يقضي وقتا طويلا وهو يحاول الصعود بمساعدة ابنه، يجنبه العثار وزلل الأقدام، حتى لا ينكب على وجهه هاويا، كان الشيخ النوبي أسدا هصورا خلت له ساحة الكلية فصال فيها وجال، سيطر على الطلاب ببراعته وروغانه، واستعمل الحيلة والمكيدة، فيرتعب الطلاب من صوت زئيره، ويبتعدون عن ساحته نجاة من بأسه وجبروته.

* * *

ظهرت بارقة أمل باهت، وبادرة شعاع خافت يلوح في الأفق، فقد أعلن عن درجتين معا في جامعة الأزهر للبنات، في نفس التخصص الذي حصل عليه عبد الدايم، كان ذلك من إرادة الله ورحمته، لم يسع عبد الدايم إلى هذا الإعلان، ولم يكن يعرف أحدا في كلية البنات، لا مسئول ولا أستاذ، قيض الله لهذا الإعلان الشيخ البنهاوي، شيخ مخضرم له باع في سياسة الأزهر واتجاهاته، ربما يكون قد سمع بالمتاعب التي أشهرها المشرف في وجه عبد الدايم، والتصدي له بكل مكر وحيلة؛ لإبعاده عن التعيين، فقد عرك ألاعيب الشيخ راغب النوبي، من لجوئه إلى الحيل البارعة، والخدع المستورة، وقدرته على قلب الحقائق وطمس معالمها، عايشه طويلا، وكان على دراية بطرقه وأساليبه مكرا ودهاء، فقد كان زميلا له لفترة طويلة في كلية واحدة يعملان بها معا، وخبر كل منهما اتجاه الآخر، وعرف سلوكه وأسلوبه في تحقيق هذا الاتجاه.

كان للشيخ البنهاوي مكانته الكبيرة في كلية البنات جامعة الأزهر، وله فيها اليد الطولى، وأبواب التعيين لا توصد في وجهه إذا طلبها، كما يعرف بالقطع أن الشيوخ إذا أرادوا أن يعينوا شخصا، أو يرفضوا آخر التمسوا لذلك العلل والأسباب.

رأى الشيخ البنهاوي أن يصل ما انقطع، وأن يرتق ما تخرم، وأن يعيد الحق إلى أصحابه، ويحدوه في ذلك حب للخير، وإيثار للحق، وبعد عن التناحر، لا يعرف عبد الدايم كيف كانت تسير الأمور في اتجاهها الصحيح دون سعي منه، ولا يعرف ماذا حدث بين الشيخ النوبي والشيخ البنهاوي بخصوص تعيينه، فالأزهر كله وحدة واحدة، إذا حدث شيء في طرف منها رن صوته في الطرف الآخر، فهي أمور تتلاقى وتتنافر من وراء ستار، لا يطلع عليها الطلاب، ولا يسبرون غورها، وإنما يعرفها المقربون من ذوي الصلات المتينة بشيوخهم، ويدركون خطواقم، وفي أي اتجاه تسير.

انتهى الأمر وعين عبد الدايم في الجامعة، ولا يدري كيف، سوى أنه تقدم بأوراقه للكلية عن طريق أحد أقاربه، عين بعد ثلاث سنوات كاملة قضاها طليقا أشبه بالمقيد، تائها شاردا بعيدا عن أسوار الجامعة، ذلك الرحيق المختوم الذي يعتبر جنة للدارسين، فهي الأمل الذي يداعب أحلامهم، ومن يسعده الحظ ويلج أبوابها، وتفتح له مصاريعها، يكون قد ذاق نعيم الدنيا، ونعيم الآخرة، كل الذي يعرفه عبد الدايم أنه تقدم أكثر من مرة لشغل وظيفة مدرس بجامعة الأزهر دون جدوى، ولكن

هذه المرة لم تفلح مكايد الشيخ النوبي التي كانت دائما تقف له بالمرصاد، ولم تنجح الحيل البارعة في أن تسد الطريق أمامه.

كان الشيخ البنهاوي له مسلك آخر، واتجاه مغاير، رأى في عبد الدايم الكفاءة التي سمع بها من بعض معارفه، فساعده على التعيين، لم تكن ثمة صلة أو قرابة بينه وبين عبد الدايم، لم يكـــن رآه من قبل أو اتصل به تليفونيا، أو التقى به عن طريق الصدفة العابرة، كل ما يعرفه عبد الدايم أن الشيخ البنهاوي هو وكيل لكلية البنات الإسلامية، ولا أكثر من ذلك.

تم تعيين عبد الدايم مدرسا في كلية البنات بالأزهر، كليـــة متشعبة الأقسام، متعددة الشعب، فيها قسم للطب، والعلـــوم، والتجارة، والترجمة الفورية، واللغات الفارسية والعبرية، وقسم للغة العربية وآدابها، وقسم للشريعة وأحوالها، كانت هذه الأقسام بمثابة أركان نهضت عليها جامعة الأزهر فرع البنات، ثم حـــول كل قسم فيها إلى كلية خاصة بها،وأدمج قسما اللغـــة العربيـــة والإسلامية تحت مسمى كلية الدراسات الإسلامية والعربية.

الشيخ إسماعيل الذي كان عميدا لكلية اللغـــة العربيـــة بالدراسة والمشرف وكيلا له، أقصي عن منصبه، وبات المشرف الشيخ راغب النوبي عميدا للكلية.

ذات مرة جاء الشيخ إسماعيل إلى كلية البنات الإسلامية يسأل عن نتيجة ابنته، كانت ملتحقة بقسم التجارة بالسنة الثالثة، شط عنه تلاميذه واختفوا من طريقه، كان غريبا لم يرحب به أحد، ترك منصب العمادة لغيره ولم يعد في يديه شيء، فلم يحفل به طلابه الذين تتلمذوا على يديه، وقد قضوا مآربهم!! في ذلك الوقت كان عبد الدايم يعمل في غرفة الامتحانات والمراقبة، رأى الشيخ إسماعيل العميد السابق وجها لوجه فبادره بالتحية، مد إليه يده مصافحا، ورحب به ترحيبا حارا لم يكن يتوقعه، ولم ينتظره من شخص بلي مر ثماره، طالما ندد به وأغلظ له في القول، وتوعده أكثر من مرة في بهو الكلية التي كانت تحت إمرته وعمادته، أصبح الآن بلا منصب ولا نفوذ ولا سلطان، احتفي به وصحبه إلى غرفة الامتحانات والمراقبة، وقدم له وافر التحية، وتناسى كل ما صادفه على يديه من متاعب وشدائد وأهوال مثل وكيله المشرف، بعد الترحيب سأل العميد عن سبب تشريفه الكلية بالحضور، وأنه مستعد لتلبية ما جاء إليه من خدمة، يود أن يلبيها له، عرف منه أن ابنته طالبة بقسم التجارة بالسنة الثالثة، ويود لو يعرف نتيجة امتحانها، خف عبد الدايم مصطحبا العميد إلى غرفة مراقبة قسم

التجارة لمعرفة النتيجة، وشكره العميد وغادر الكلية وهـــو في غاية الرضا والسعادة لهذا اللقاء الطيب من تلميذ ظـــل وفيـــا يحفظ الود، ويحمل الجميل لأستاذه، ويقابله هذا اللقاء الحافل، الذي لم يبده أحد ممن عرفه سابقا.

* * *

بزغت الشمس من جديد، وأطلت من وراء تلك الغيـــوم التي تزحف عليها، وأخفتها عن الأنظار طوال هـــذه الفتـــرة العصيبة، التي لم ير فيها عبد الدايم أثرا لشعاع يـــنير، أو بقعـــة تضيء توضح له معالم الطريق، وتفسح المجال أمامه فيبدو متسعا برحا، السماء ملبدة بالغيوم تسمع فيها صوت الرعد، وتـــرى شرارة البرق وأزيز الرياح العاتية، وامتلأت نفسه جزعا وقلقا، كان الصبر يحدوه، وأنى للصبر أن يتمثل به عبد الدايم وهو يعاني من مرارته، وأصحاب المصالح وحدهم يتسلطون علـــى كـــل غنيمة، ويصلون إليها بكل الطرق، ومختلف الأساليب، لـــيس أمامهم من وسيلة إلا الوصول إلى أغراضهم، مهما كان الثمن فادحا، فيه إراقة لماء الوجه، وكسر لشموخ الأنف، وتحطـــيم لعزة النفس.

* * *

{ ١٢ }

فشِل محمود ابن الشيخ مصطفي في دخول الأزهر واقتحام أروقته ، والاستماع إلى دروسه ، والجلوس في حلقاته التي يتفرغ لها المجاورون ، وينعمون بسماع ما يلقى إليهم من أحاديث يسترجعونها بعد أن ملأ الشيخ رءوس طلابه بما فيها من أفكار دينية ، وحيل شرعية يتفهمها النشء وتدور أفكارهم حولها ، يقذفها الشيخ من فيه إلى عقولهم النشطة البيضاء، التي لم تمتلئ بعد بشئ من علوم يختص بها الأزهر، ويعرفها طلابه دون غيرهم من طلاب المدارس الأخرى .

عندما فشل محمود في دخول الأزهر التحق بالتعليم العام الحكومى ، وحصل منه على الابتدائية ، التحق بوزارة العدل بقلم المحضرين ولقب بالأفندى فصار أسمه محمود أفندى مصطفي عمل بمناطق متعددة، وبحكم عمله صار يتردد على الناس في الشوارع والحارات والأزقة، والجلوس على المقاهى والمصاطب، يمكث في كل منطقة زهاء عامين أو أكثر،متنقلاً بين الخليفة ، والبساتين ، والسيدة عائشة ، والتونسى ، وزينهم ، وزين العابدين ، إلى أن استقر به المقام في شبرا موضع رأسه ، وموطن ولادته .

محمود أفندى كان ماهراً ذكياً وابن سوق في معاملته للآخرين ، أما أهل بيته ومنزله فلم يستعمل فيه ذكاءه الوقاد الذى عرف عنه ، فلم يتعامل برفق مع أولاده ، ولا بمداراة مع زوجه ، فلم يكن سعيداً في المنزل و لا في تربية الأولاد ، وهو على خلاف دائم مع أولاده الثلاثة ، وابنتيه الاثنتين ، ومع زوجه كان الشجار بينهما مستمراً لا يخمد حتى يشتعل من جديد ، لم يكن الإنفاق على البيت والأسرة ومطالب الأولاد هو سبب الشجار المستمر المزمن ، كان ينفق على أسرته ببذخ دائم، ولم تكن الشكوى من تقصيره في أداء متطلباته الأسرية ، فهو يحضر بنفسه كل متطلبات البيت ولا ينقص منها شيئاً ، ولكن الخلاف كان يدب بين الزوجين على أبسط الأمور وأتفهها ، كأن يختلق قصة عجيبة الشأن ويؤكد على أحداثها وكأنها جرت أمامه في التو واللحظة ، فتصدقها الزوجة ويصدق أحداثها الأولاد ، ولكن الواقع يكذبها ، تكون الزوجة قد هيأت نفسها على التعامل مع أحداث القصة المختلقة ثم يتضح كذبه ، أو يختلق شيئاً بعيد الحدوث ويصر على أنه قد حدث له بالفعل، فتؤمن زوجه بكل كلمة قالها ، وإذا به يبدو كذبه

واختلاقه وتمويهه . وهكذا استمر الحال يختلق الكذبة ويطورها، ويعيش أحداثها ، ويحكى تفاصيلها لزوجه فتصدقها وتؤمن بكل حرف قيل بشأنها ، ويتلو هذه الكذبة بكذبة أخرى ثانية وثالثة حتى صارت حياته مع زوجه سلسلة من الأكاذيب لا تنتـــهى، ويكذبها الحال أو الصدفة فينكشف الأمر وتتوتر العلاقة بـــين الزوجين، ويصل مداها في الثغرة بين الزوجين.

في إحدى المرات أخبر زوجه أن وزارة العدل التي يعمـــل موظفاً بها قد رتبت رحلة للحج والعمرة وأنه اشترك في هـــذه الرحلة ومعه زوجه ، وعليه أن يدفع قيمة الاشـــتراك فيهـــا ، وطلب من زوجه صور فوتوغرافيا لاستخراج جواز الســـفر ، كل شيء يسير في طريقه الطبيعى المعهود إلى أن تحـــدثت مـــع إخلاص زوج صديقه ياسر في العمل ، واستمر الحـــديث بـــين الزوجين في شتى الأمور كعادة النساء حتى أخبرتهـــا أن رحلـــة الحج والعمرة لا وجود لها ، ولم تعلن عنـــها وزارة العـــدل ، وبالتالى لم يشترك فيها أحد لا زوجك ولا زوجى ، ولا أســـاس لها من الواقع.

أخبرت زوجها محمود بأن رحلة الحج والعمرة التي أخبرها بشأنها لا وجود لها وأنها عاشت في حلم مريح وجميـــل حـــين

أخبرها باشتراكه فيها ومعه زوجه، ولكن إخلاص بددت هـذا الحلم الجميل حين أخبرها في الهاتف أن الوزارة لم تعلن عن مثل هذه الرحلة .

كان الكذب فيه داء متأصلاً لا يستغنى عنه، وإن لم تدع إليه ضرورة، تحملت زوجه وأسرته هذا الكذب المستمر على مضض، وحاولت أن يتخفف من هذه الأكاذيب ويبتعد عنها دون فائدة، وكلما أوجب على نفسه ألا يعود إلى أكاذيبه اندفع إليها بعد ذلك في صورة أخرى، بحيث صارت هذه الأكاذيب تجرى منه مجرى الدم في العروق حتى وصلت ذات يوم إلى الخصومة العاتية بينه وبين زوجه، فضلت الذهاب إلى بيت أبيها، ومكثت فيه الليالى الطوال والأيام المستمرة لعله يتعظ بهذه القطيعة ويغير من أسلوبه في الحياة ، ويعود إلى الصدق في كلامه والوضوح في معاملته لأفراد أسرته ، مكثت الفترة الطويلة وقد تستمر في منزل والديها قرابة الشهر دون أن تبدى الرغبة في العودة إلى المنزل ، يذهب محمود إليها في بيت أبيها المرة تلو المرة عساها تلين له وترجع معه إلى منزله دون جدوى، متمسكة برفضها، فهو دائماً يتقول عليها ما لا تقول، ويدعى

عليها ما لا تفعل، وقد ملت من كثـرة أكاذيبـه واختلاقـه الأحداث وافتعاله أموراً لم تحدث بالمرة، وإصراره على الكذب المقيت ، دون أن يبدو عليه شئ يجعله يعترف بما يقترف ، ولا سبيل إلى الخلاص من ذلك أو الإقلاع عنه.

* * *

ذهب عبد الدايم بإلحاح من قريبه محمود أفندى مصطفي إلى مقر عمل حماه ليصلح بين الزوجين ، وشكى لأبيها ما تفعله ابنته مع زوجها محمود أفندى الرجل المستقيم الطيب ، وكمـا أخبره محمود فهو لم يسئ إلى زوجه ، وردد ما سمعه من محمـود أفندى على مسامع الأب ، والأب رجل من الصعيد الجوانى – من سوهاج البلينا – يحترم الأسرة ويجعل الزوج هو صـاحب الكلمة العليا في المترل ، وعليه تنعقد الأمور في الحياة الزوجية ، وليس من حق الأسرة إلا الطاعة وعدم المراجعة، عليها فقـط السمع والإذعان، ومحمود أفندى لا ينال من زوجه إلا العصيان والإهمال وسوء المعاملة .

هكذا أخبره محمود أفندى ، وطلب من عبد الدايم ابـن عمته أن يخبر أباها بما ذكره له، فاحتد الرجل وغضب غضـباً

شديداً وضاق صدره بما سمع، فهو لا يسمح بمثل هذا الهراء من ابنته ومعاملتها لزوجها بهذا التصرف المقيت ، فكيف تقدم ابنته على هذه الأفعال والأقوال التي وجهتها لزوجها ، وهو الـــذى أحسن تربيتها وزودها بروح طيبة فعالة تحب الخير لكـــل مـــن حولها ، لا تعرف الشر وتمقته ، ولا تتعامل به مع أحد خاصـــة أسرتها وزوجها ، فلا تقترف ذنباً ولا تسئ لمخلـــوق ، ولـــيس على الزوجة إلا أن تضع زوجها في مكانته السامية الخليقة به ، فهو تاجها وصولجانها الذى يجب أن تعتز به وتفخر وتعرف حقه عليها وعلى أولادها .

مشى عبد الدايم مع والدها واصطحب معه محمود أفندى إلى منزل حماه . شدد الوالد النكير على ابنتـــه وأسمعهـــا مـــن العبارات ما تستحق وأكثر ثم واجهها بما قاله عبد الدايم نقـــلاً عن زوجها محمود أفندى ، أنكرت الزوجة كل كلمـــة قالهـــا واتهمها بها ، وانخرطت في بكاء مستمر ودمع يهطل بلا انقطاع، وأنها كانت تنوى العودة إلى منزل زوجها لتطمئن على حـــال أولادها ورعايته لهم ، غير أنه الآن بعد أن سمعـــت ادعاءاتـــه وافتراءاته وأكاذيبه التي اعتاد عليها فلن تعود إليه مرة أخرى .

أخذ عبد الدائم يهدئ من روعها وغضبها ، فقد أراد أن يكون حمامة سلام لا غراب بيْن يدعو على الفرقة وتمزيق الشـــمل ، وعمل على تخفيف أحزانها إلى أن هدأت وأطمأن قلبها وسكنت جوارحها ، وعادت إلى حالتها الطبيعية ، شـــعر أن هـــدوءها وسكونها ينبئ عن معنى السلام والرضا وأنهمـــا يشـــرعان في الصلح ، ونسيت ما قدمه لها محمود أفندى مـــن إســـاءات .
انسحب عبد الدايم من المترل في هدوء ، وتركهما – والصلح والوفاق يتسللان إلى البيت الذي كاد أن يهدم، ويمزقه الضياع، وتعلوه الغيرة – يتناولان الغداء في صحبة الوالدين ، ويتسامر الجميع حول المائدة الزاخرة بألوان الطعام.

* * *

استمر الشقاق بين محمود أفندي وزوجـــه، كمـــا اســـتمر الخلاف بينه وبين أولاده ، فهم لا يرضون عن مسلك أبـــيهم، ولا يقبلون منه كلامه المعجون بالأكاذيب ، رغم ما تحمله مـــن مصاريف باهظة في سبيل استمرار دراستهم في المدارس الأجنبية بالقسم الفرنسي، الذي دعا الأب أن يتحمل مـــالا يطـــاق في سبيل الإنفاق عليهم ، وتسديد مصاريف مدارسهم، وإذا كان

الموظف صغيراً شأن محمود أفندي الـــذي لم يحصـــل إلا علـــى الشهادة الابتدائية، لا يمكنه أن يتحمل باهظ التكـــاليف الـــتي تتطلبها المدارس الأجنبية، ولكنه لم يضعف ولم يهن أمام دفـــع المصاريف يوماً ما، كان يدفع الأقساط المدرسية في مواعيـــدها المقررة دون تسويف أو تذمر ، حتى انتهت البنتان من الدراسة الجامعية بالقسم الفرنسي ، وعملت كلتاهما في شركات بترولية أجنبية تعتمد على اللغة الفرنسية .

أما الذكور الثلاثة فقد تخرجوا في كليات مختلفة لها شأنها مثل التجارة والحقوق والخدمة الاجتماعية .

الجميع في عراك دائم وشجب مستمر ، كـــل صـــغيرة وكبيرة يرصدونها لأبيهم ويراجعونه فيها، ليست مطالب البيت أو الأسرة هى سبب هذه المشاحنات المستمرة ، فهو ينفق على البيت ببذخ وسخاء مما يجنيه من عمله وتداخله مع أصـــحاب القضايا وإقامة الدعاوى ، تجد في بيته أطيب المأكل ، وأحســـن المشرب، وأفخر الثياب لزوجه، وأولاده الـــذين يدرســـون في أرقى المدارس الأجنبية، الأولاد يقفون صفاً واحداً بجوار أمهـــم يتشاحنون ضد أبيهم، مما جعلهم يتخذون منه موقـــف العـــداء

والعصيان والعنف أحياناً، مما اضطر محمود أفندى أن يهجر المترل حتى يسلم من مخالب زوجه وأولاده التي تنهش في ذمته وسمعته وكلامه الذى امتلأ بالأكاذيب ، ترك مترله وأولاده ومكث في بيت أخته العانس ، التي تقطن بجوار مترله .

رآه عبد الدايم في حالة غريبة ، وشكل رث ، مهوش الشعر ، مرسل اللحية، مشوش الفكر، بالى الثياب، زائغ البصر، مهيض الجناح ، تبدو عليه مظاهر الغم والقهر، يرغى ويزيد في الكلام، ويتهم أولاده بالعقوق والنكران، وهو الذى رباهم أحسن تربية، وعلمهم أفضل تعليم، وأغدق عليهم ولم يحرمهم من شيء ، فيكون مصيره هذا الازدراء والإهمال والهجران .

هل تتصور أن ابنى أحمد الكبير الذى حصل على بكالوريوس الخدمة الاجتماعية يدفعنى على السلم فأفقد توازني، وأسقط متعثراً على الدرج ، ويكيل لى الشتائم ويغلق الباب في وجهى، هذه ذراعي بها بعض الكدمات ، وهذا ساقي به بعض التسلخات ، ووجهي لعلك لاحظت به بعض الخدوش ، وأحمد ابنى ينظر إليّ في كمد وسخط، وكأن أباه لم يعثر بالدرج والأمر لا يعنيه .

نظر عبد الدايم إلى محمود أفندى فوجده كالح الوجــه ، معفر الثياب ينضح منها العرق، وتنبعث منها الروائح الكريهة ، محطم الأعصاب ، واهن الجسد لم يره من قبل بهذه الحـــال ولا بتلك الصفات . كان يشكو ابنه أحمد أكبر أبنائه الذى دفعــه فتدحرج من أعلى السلم .

ومرة أخرى وأنا في المترل أصلى العشاء ، ساجد وجبهتى تلامس سجادة الصلاة ، بين يدى ربى يركلنى بقدمه فأطيح على جنبى متأوهاً، هان عليه أبوه يا عبد الدايم، وأغضب عليه ربه، دون أن تتحرك فيه مشاعر البنوة أو الإحساس بالأبوة! مـــاذا فعلت له؟ وماذا جنيت عليه حتى ألاقى منه هذه المعاملة ؟ .

سخط عبد الدايم على الوضع المزري الذي آل إليه حال ابن خاله محمود أفندى من أسرته وخاصة من أحمد ابنه الأكبر، الذي لم يبر بوالده، ولم يتعامل معه في رفق، أبوه شقي كثيرا في تربيته وتعليمه وتخرجه في الجامعة، قابل إحسان أبيه بالإساءة له، ولم يجن من ثمارها سوى الحنظل المر، الذى تشيع مرارته فتلفظه الأفواه وتعافه النفوس .

كان جزاء محمود أفندى من أولاده كجزاء سنّمار، الذى ألقى به من حالق من قمة القصر الشامخ، الذي شيده، حـــتى

حجارة السفح دون رحمة، ورد الجميل بهذا النكران ، وعد أحمد ألا يعود إلى مثل هذا الفعل مرة أخرى ، فلا يؤذى والـده ولا يهينه ولا يسبه .

لم يستمر هذا الوعد طويلاً ، ولم يعمل بـه لا هـو ولا أخواته ، وعادوا إلى الإساءة لوالدهم ، لا يحسنون معاشـرته ، ولا يظهرون له المودة ، ولم يدعوه إلى منزله يعيش بين أولاده ، وبقى محمود أفندى غريباً عن منزله ، بعيداً عن زوجه وأولاده ، فالإقامة معهم مستحيلة ، وبقى في منزل أخته العانس في شـقة خاوية ليس بها زوج ولا ابن، عاش معها فاقد الكلم والحركة ، لا يكاد يزوره أحد من أبنائه أو بناته سوى الابن الأصغر خالد الذى تخرج في كلية التجارة بتقدير جيد جداً وعمـل محاسـباً باحد البنوك المصرية الكبيرة ، ومحمود أفندى لا يزال يتحدث بالإشارة ويتحـرك في الغرفـة وأحيانـاً يتنقـل إلى الشـرفة على كرسى متحرك .

مكث على هذا الحال ثلاثة عشر عامـاً يـدفع أمامـه الكرسى المتحرك بيدين هزيلتين ضامرتين .

* * *

وضع أساتذة كلية اللغة العربية بالدراسة كتاباً للسنة التأهيلية للبنين ، وكذلك فعل نظراؤهم في السنة التأهيلية للبنات بمدينة نصر ، أساتذة البنين كانوا أقرب إلى التنفيذ وأسرع في توزيع الكتاب على طلابهم ، بينما شرع أساتذة البنات في إعداد الكتاب ، وتهيأوا لطباعته وتوزيعه على الطالبات .

أخذ الموظف المكلف بجمع اشتراكات الطالبات في كتاب السنة التأهيلية ، وبطبيعة الحال لم يشترك معظم أساتذة الكلية في وضع الكتاب وإعداده ووضع مادته ، اختير بعض الأساتذة لهذه المهمة ، على أن يكون عائد الكتاب مشتركاً بين الجميع ، من ألف منهم ومن لم يخط حرفاً واحداً في المنهاج المقرر ، هكذا كان الارتباط المعنوى بين أستاذة القسم : الاحترام المتبادل ، وترك الأمور تسير على الأصول المتبعة من قبل .

وصل عبد الدايم مكالمة هاتفية وهو منشغل ببعض الأوراق ، جلس في حجرة الأساتذة تحت أشعة شمس الشتاء الدافئة ، تدخل كل صباح وتستمر حتى الضحى ، فيشعر

الجالس تحت أشعتها بشئ من الخـــدر الجميـــل والإطمئنـــان الشديد، وصلت هذه المكالمة من أستاذه الشيخ راغب النـــوبي المسئول مع غيره من الأساتذة عن تأليف الكتـــاب التمهيـــدى للبنين ، طلب من عبد الدايم أن يحضر إليه في كلية اللغة العربية على عجل، فالأمر هام ولا ينتظر التسويف، نفض عبد الـــدايم السكون الذى رنا عليه، وانفصل عن شعاع الشمس الـــدافئ وقتاً قصيراً ، وتأهب لما يمكن أن يحدث من جراء هذه المكالمة، طوى أوراقه ووضعها في درج المكتب، وذهب من فـــوره إلى كلية اللغة العربية بالدرّاسة .

وجد في انتظاره الشيخ النوبي، وقبل أن يسترد أنفاســـه حتى يجلس هادئاً مطمئناً، فالمشوار الذى قطعه بالأوتوبيس مـــن مدينة نصر إلى الدراسة لا يستهان به، بادره القول: إن كتـــاب السنة التأهيلية للبنين يجب أن يسود الجامعة كلها بنين وبنات ، وما يقره الأساتذة على البنين تلتزم به الطالبات في كلية البنات. واسترسل الشيخ النوبي قائلاً دون اهتمام كأن الأمر لا يعنيـــه: على أن يكون ما لأساتذة البنين من عائد هذا الكتاب يكـــون مثله لأساتذة البنات، فأنتم أبناؤنـــا ولا يحـــق لنـــا أن نهضـــم

حقوقكم، أو نجعلكم تشعرون بالإجحاف، فهذا ليس من شيم العلماء، ولا فرق في المعاملة بين أساتذة البنين وأساتذة البنات، فكلنا يعمل من أجل هدف واحد هو العلم، ونخدم في جامعة واحدة هى الأزهر، شعر عبد الدايم شعوراً مبهماً أن كلام الشيخ النوبي يتسم بالخداع والمراوغة ، فهذه طريقته التي يعرفها عنه عبد الدايم حين يخفي أمراً لا يبين عنه إلا في وقته المناسب، قال عبد الدايم في تحفظ شديد:إن زمام الموضوع بيد أعضاء القسم، ولا أسمح لنفسي أن أتحدث باسمهم دون موافقة منهم، سأعرض الأمر عليهم ولهم الرأي النافذ بعد ذلك، وأنا لا أملك الحق في أن أنوب عنهم دون تكليف منهم أو الرجوع إليهم .

أراد عبد الدايم أن يتخلص من هذا المطب ، أو الكمين الذى أعده بإحكام الشيخ النوبي ويتحمل وحده مسئولية هذا التصرف .

لجأ الشيخ النوبي إلى حيله المعتادة التي لا تخفي على عبد الدايم ، فهو يعرفه منذ أن كان طالباً في قسم الدراسات العليا ، وأشرف على رسالته في الدكتوراه، فاستعمل معه طيب الكلام،

ورقة الحديث، وأنه يعمل من أجل صالح كلية البنات ، فالأساتذة أبناؤه، ولهم نصيب من عائد الكتاب مثل نصيبهم تماماً.

كان وجه عبد الدايم يفصح عن عدم اقتناعه بهذه الأقوال، إلا أن الشيخ النوبي استمر يعزف على الوتر البالى الذى داخله النشاز فلا تسمع له صوتاً إلا حشرجة النغم ، وتهافت الرنين .

أنا يا بنيّ مجرد بنك تحفظ فيه النقود كوديعة ، تكون طوع أمركم إذا طلبتم استردادها في أي وقت ، وأعضاء القسم لديكم لن يمانعوا في الموافقة على ما أقول، ولا أرى منك ضرورة في الرجوع إليهم ومشاورتهم ، وأنا واثق أن كل تصرف منك لن يعارضه أحد ، فكل زملائك يحبونك ويأخذون برأيك .

أعطنى كل ما وصل إليك من اشتراك الطالبات في الكتاب، وأنا بدورى سأرسل لكم الدفعة الثانية حتى تكتمل لديكم نسخ الكتاب، فقد أرسلت لكم الدفعة الأولى منذ أيام ، وبذلك تتجنبون طبع كتابكم ، وما يلزم ذلك من جهد ووقت، ومراجعة وإزعاج وتكاليف .

بطبيعة الحال لم تنطل هذه الحيلة على عبد الدايم، فهـــو يعرف الشيخ النوبي وتصرفاته المراوغة مع زملائه وتلاميـــذه، وقد تسبب تصرفاته غضب زملائه ولكنه لا يبالى بشـــئ مـــن أقوالهم أو غضبهم، إنه يعرفه حق المعرفة، ولكنـــه خجـــل أن يراجع أستاذه في أمور مادية يعتبرها تافهة مهما قلت أو كثرت، ويبدى له العصيان بسبب قروش زهيدة لا تكاد تصنع شيئاً .

بعد تردد من عبد الدايم وخجل من أستاذه الشيخ النوبي أعطاه كل ما تجمع لديه من نقود ، وضع الشيخ المبلغ في جيبه الداخلى للقفطان ، ومر بأصابعه عليه يتحسس مكانها ويطمئن على إيداع المبلغ فيه والتحقق من وجوده .

لمح عبد الدايم شبه ابتسامة تعلو صفحة وجه الشـــيخ ، ابتسامة الظفر بوقوع الفريسة في عرين الأسد دون جهد ، مجرد كلمات ألان بها طبع عبد الدايم، واستولى على كل شئ، كانت الابتسامة فيها كثير من السخرية من عبد الدايم الشاب الغرير ذى العود الأخضر الطرى .

استرسل الشيخ النوبي في بهجته ولغو حديثه ، بعد أن نال بغيته ، وبينما هو في انشراح الصدر جاءه عبد الجواد أفنـــدى الموظف بالكلية بإشارة هاتفية تخبره أن الشيخ نفادى اتصل من

منزله ليبلغ هذه الرسالة : إذا جاء عبد الدايم إلى الكلية فأبلغني فوراً ، وعليه ألا يبرح مكانه حتى أحضر إليه . كان عبد الدايم يجلس مع الشـيخ النوبي ، فاضطر عبد الجواد أفندى أن يخبره بفحوى الرسالة وهو جالس مع شيخه في الغرفة .
لو كانت الرسالة وصلته قبل لقائه بالشيخ النوبي لتغير الأمـر كثيراً ، ولكن ما الحيلة وقد جاءت متأخرة بعد فوات الأوان ، وإيداع الشيخ النوبي حصيلة الكتاب في جيبه .

لم ينقص عبد الدايم الذكاء حتى يدرك أن الأمور الماديـة هى السبب في اتخاذ هذا القرار لصالح الشيخ النـوبي ، فهـو يركض وراء المادة أنى وجدها ، ومهما كلفه ذلك مـن حيلـة وخداع ، أما العلم وحاجة الطالبات إليه ، وحصـولهن علـى نسخ الكتاب والاعتماد عليه ، فهذا شئ لا يطوف بذهنـه ولا يخطر على باله .

الشيخ نفادى أخبر عبد الدايم أن شيخه النـوبي وضـع أنصبة للأساتذة المشاركين في وضع الكتاب للبنين ، وقسـمهم إلى ثلاث فئات ، من وضع مادة الكتاب فله ثلاثة أسهم ، ومن قام على طبعه فله سهمان ، ومن لم يشـارك في وضـع مـادة

الكتاب ولا في طباعته فله سهم واحد ، فخراج الكتاب يقسم على ستة أسهم توزع بهذه الكيفية، فالقسمة بينهم إذن لم تكن بالمعنى الذى سبق اتفاقهم عليه ، فخذل الشيخ النوبي زملاءه ، كما خذل أستاذة البنات ، ومنع حقهم من حصيلة الكتـــاب ، وأضاعوا حق البنات من بقية النسخ التي لم تـــوزع علـــيهن ، ووعد بإرسالها الكلية، و هذه القسمة الجائرة هي التي طغـــت على معاملاته.

أصبح بطبيعة الحال أن عبد الدايم وزملاءه لم يســـتطيعوا طباعة كتابهم الذى أعدوه من قبل ليكون في متناول الأيـــدى ، فالمادة تختلف بين الكتابين ، والكتاب الذى ورد من البـــنين لا يغطى عدد الطالبات وأصبحن في حاجة إلى مزيد من النســـخ، فنصحوا الطالبات بالتصرف في الأمر .

احترم أساتذة البنات – وهم يوصفون بحداثة أعمـــارهم وحصولهم على الدرجة العلمية من زمـــن قريـــب لا يتعـــدى الأعوام الثلاثة – احترموا أساتذتهم الكبار الذين تخلـــوا عـــن مسئولياتهم تجاه البنات ، وانعكس على أساتذة البنات ، وكان فيما حدث مبرراً كافياً ألا يتعاملوا معهم مرة أخرى.

* * *

{ ١٤ }

عاد عبد الدايم من السعودية بعد أن مكث عامـــا في تبـــوك بشمال المملكة، وهي بلدة معروفة برداءة جوها، فالبرد شديد قاس، والماء يتجمد داخل الصنبور، عندما تفتحه لا يتدفق منـــه ماء، دائما ترى فقاقيع هواء، بعد فترة ينساب فيها الماء الـــذي يتجمد على حواف الحوض وباطنه، لم يبال بشيء من ذلـــك، ولن يستمر الثلج داخل الصنابير طويلا، فالمدة لا تزيد عن شهر أو شهرين، ويعود كل شيء إلى طبيعته، الماء يتـــدفق وتســـير الأمور على طبيعتها.

جيران عبد الدايم من السعوديين غاية في الطيبة والكرم يحبون المصري، ويقدرون شخص عبد الدايم، وينزلونه منزلته حيـــث حصل على الدكتوراه، ولا ينادونه إلا بهذا اللقب (يا دكتور).

ذات يوم بعد صلاة العصر في وقت الأصيل طرق باب منزله طارق، فتح الباب فوجد أمامه رجلا كهلا في الأربعين من عمره ملتحٍ مشرق الوجه، يطلب لقاء الدكتور ومعه رفيـــق آخـــر، أخبر عبد الدايم عن سبب الزيارة، كان لديه مشكلة قانونيـــة يطلب من الدكتور أن يتولاها ويدرس أحداثها، ويهيئ نفســـه

للدفاع عنه، واسترداد حقه السليب، يطلب إليه أن يرفع عنه قضية بعد دراسة الأوراق التي حملها وجاء بها ليراها الدكتور، أبدى عبد الدايم تعجبه من هذا التصرف، فهم الضيف أن الدكتور يعرف كل ما ظهر وما خفي في شتى الموضوعات، ويستطيع أن يحل كل المعضلات التي تواجهه، ولا يستعصي عليه شيء قانوني أو لغوي أو اجتماعي.

ابتسم عبد الدايم ابتسامة رقيقة لسماع قول هذا الرجل البسيط، فهو متخصص في اللغة العربية وليس في القانون، ولا علاقة له بالمسائل القانونية أو التشريعية أو الجنائية، بل إن تخصصه ليس في علوم العربية كلها وإنما في فرع واحد من فروعها "*البلاغة*"، وهو لا يعرف عن القوانين إلا ما يعرفه عامة الناس، فوجه كلامه إلى الرجل الكهل الملتحي في أدب جم، حقيقة أنه حصل على الدكتوراه وأنه دكتور، ولكنه ليس في القانون ولا في الشريعة، ولا يمكنه أن يدرس قضيته أو يترافع فيها، أو يرد إليه حقه الضائع، فهو ليس أهلاً لذلك، وليس في مقدوره إلقاء النظر عليها لأنه لن يفيد. ودع الضيف بعد أن أحسن لقاءه وأظهر من جانبه رحابة الصدر وحسن اللقاء.

عاد عبد الدايم من السعودية ليقضي عطلته الصيفية في حرارة القاهرة، زاره في مترله زميل الدراسة عبد الكريم سلمة، كانـــا صديقين متلازمين باليمن يعملان بالتدريس في المعاهد الأزهرية اليمنية، وفي الوقت نفسه يدرسان للدبلوم والتحضير للدراسات العليا، كان عبد الدايم يسكن مع زملائه من بعثة الأزهر بجوار دار الضيافة، ومعه زميله سلمة، وهو شاب ريفي لا يحـــب أن يخالط أحدا من الزملاء، برّاوِيّ الطبع، من الصعب أن يعقـــد صداقة مع أحد الزملاء، من بين الزملاء حفني مدرس التربيـــة الفنية، شاب ممتلئ الجسم ليس بالطويل ولا بالقصـــير، يحـــب اللهو والعبث، طريف الحديث، ملازم للمداعبة والنكتة، رأسه كبير وشاربه يسترسل تحت أنفه في غير تنظيم، يحب أن يداعب سلمة بصفة خاصة، ويتناوله أحيانا بالهزء والسخرية، فيضحك لطرافة كلامه الزملاء، وبطبيعة الحال لم يستطع سلمة أن يجاري حفني في مداعباته وقفشاته وسخرياته، التي لا يبغي من إطلاقها سوى الإضحاك وقضاء الوقت، وتزجية الفراغ، سلمة يبـــدو عليـــه الغضب ويترك المجلس نافرا منه.

انتهز سلمة فرصة زيارة رئيس البعثة الشيخ دياب لأعضـــاء بعثة الأزهر، والشيخ دياب معروف بالصلاح والتقوى وحسن

الدين والخلق، وحرصه على جميع أفراد البعثـــة، لا يحـــب أن يكتب تقريرا يسيء فيه إلى واحد من المدرسين، مهما أخطأ أو أساء، كان الزي الأزهري من العمامة والكاكولا زياً أوجبـــت إدارة الأزهر ارتداءه على كل مبعوث من قبل البعثة، ولا يحق له أن يبدو من دونه أو يتخلى عنه، سواء في التـــدريس أو في الأماكن العامة، وإلا تعرض للمساءلة أو إلغاء بعثتـــه، فكـــان الشيخ دياب رئيس البعثة يرى بعض المدرسين ومنهم عبد الدايم يسيرون في شوارع صنعاء وقت الأصيل بملابســـهم المدنيـــة، فيغض البصر عنهم ويحوله في اتجاه آخر، كأنه لا يرى شيئا من المخالفات التي تتعلق بالزيّ الأزهري ونبذه، حتى لا يعرضـــهم لإلغاء بعثتهم.

* * *

في زيارة الشيخ دياب التي يحاول بها أن يطمئن على أحـــوال البعثة وأفرادها، وطريقة سيرها، وإن كانوا في حاجة إلى شـــيء يمكن تدبيره لهم ، ويعينهم على إصلاح معيشتهم، وأن أفـــراد البعثة لا شكوى لهم من شيء أو أحد.

انتهز سلمة زيارة الشيخ دياب، أراد أن يكيد لزميله حفـــني مدرس التربية الفنية الذي يتناوله دائمـــا بالســـخرية ويجعلـــه

مضحكة بين زملائه، أراد أن يكيد له وينتقم منه، حتى يضـــع لسانه في فمه دون أن يجرؤ بعد ذلك على التلاعب به، بل سار إلى ما هو أبعد من ذلك، أراد أن يلغي بعثة حفني ويلغي وجوده من اليمن، فسلمة صاحب خبرة سابقة، فقبل اختياره كعضو في بعثة اليمن كان يعمـــل في إدارة المبعـــوثين بمجمـــع البعـــوث الإسلامية، وكانت ترد إلى هذه الإدارة شكاوى من المبعـــوثين من مختلف الأنحاء، وكان سلمة يطلع على هـــذه الشـــكاوى، وعرف من مضمونها أن أهم هذه الشكاوى وأخطرها هو مـــا يتعلق بصفاء الدين وجوهره، أو ما يمس الخلق وطهارته، فـــإذا انحرف مبعوث عن طريق العفة والخلق القويم تلغى بعثته فورا و يترك مقر عمله.

كان من بين الأشياء التي يحكيها حفني عن سلمة أنه ذهـــب إلى إدارة البعثات وكان سلمة موظفا بها، ووقف حفني علـــى الباب منتظرا أن يسمح له سلمة بالدخول، ولكن سلمة ابتدر حفني قائلا: الزم مكانك، لا تدخل المكتب، عد إلى المكان الذي جئت منه حتى نرسل إليك، فعاد حفني إلى مكانـــه بدمنـــهور مهيض الجناح مكسور الخاطر.

حفني يردد هذه الحكاية لزملائه يتندر بها على سلمة ويجعل منه سخرية بين زملائه.

أعد سلمة العدة لينتقم من حفني مدرس التربية الفنية الذي يسخر منه في كل مناسبة واتهمه في حضور أعضاء البعثة جميعا وهم متحلقون حول الشيخ دياب رئيس البعثة محتفين به، ألقى قنبلته الموقوتة، فاتهم حفني بأنه رآه منذ يومين يتعرض لفتاة بدوية يمنية في بدروم المنزل يمسك يديها ويحيطها بذراعيه ملتصقا بها محاولا تقبيلها، والفتاة تفر منه مذعورة صارخة، تحاول أن تستعيد هدوءها واتزانها، والأزهر يتحرى أن يرسل من يمثله، يتحرى فيه أن يتسم بالخلق الكريم والسمعة الطيبة، وحفني خرج عن الإطار المرسوم لمبعوث الأزهر.

كان رئيس البعثة الشيخ دياب رجلا عاقلا هادئا يزن الأمور بقدرها، وعلم القصد الذي يرمي إليه سلمة، فقال في وضوح تام – يريد نفي التهمة البشعة التي يحاول سلمة أن يلصقها بزميله حفني–: إن الفتاة اليمنية لا تتسكع في الطرقات، ولا تطرق أبواب المنازل ليلا أو نهارا، فاليمن من المناطق المنعزلة ويعيش أهلها بنظام القبائل التي يتحصن أهلها بالجبال، ولا

تخرج فتياهم حتى يراهم الناس الأجانب، لا يختلطون بالأجانب، ونساؤهم تتسم بالحشمة، وتنأى عن مبادلة الرجال الحديث إذا كانوا غرباء، فكيف يمكن لحفني أو غيره أن يتعرض لفتاة يمنية، دعك من هذه الأقاويل يا أستاذ سلمة.

خرج الشيخ دياب من هذه الزيارة ضائق الصدر مضطرب النفس مهموما يضرب كفا بكف لهذه المكيدة السوداء التي يدبرها زميل امتلأ قلبه بالحقد لزميل آخر لم يرد معه سوى الهذر والفكاهة.

بعد هذه الحادثة التي تشعبت فيها صور الاتهامات شعر سلمة أنه محاصر بين زملائه، وسدت عليه جميع المنافذ حتى لا يهرب منها، صار كفأر مذعور داخل مصيدة لا يمكنه الانفلات منها، وألقى عليه ماء ساخنا، ألهب نفسه وسلخ جلده.

صاح حفني منفعلا متغضن الوجه يطرد من فمه عبارات وشتائم مقذعة يوجهها لزميله سلمة، وأمسك بخناقه، ووصفه بأنه رجل شرير يحب الكيد لزملائه، ويتفنن في الإيقاع بهم، ويطبق ما كان يصله من شكاوى، يطبقه عليه شخصيا حتى تلغى بعثته، ويفقد وظيفته.

لم يقف حفني وحده في مواجهة سلمة، بل وقف معه زملاؤه من مدرسي المواد الاجتماعية واللغات الأجنبية، أجمعوا أن يغادر سلمة مكانه وسكنه معهم، فقلوبهم تحولت عنه، وامتلأت عليه كراهية ولعنا، فهم لا يريدونه ولا يحبون أن يروا وجهه، أما الزملاء الآخرون فلم ينطق أحدهم بكلمة، فدار في أنفسهم أنه خاطئ، ولا يمكن لأحدهم الدفاع عنه، وقعوا من أمرهم في حيرة، وقبلوا مرغمين أن يغادر سلمة الصحبة والسكن، ويبحث له عن مأوى آخر بعيدا عنهم، أرادوا أن يكفوا شره، ويأمنوا بوادر ادعاءاته الكاذبة، فربما تكرر منه هذا العمل بعد ذلك مع واحد منهم.

ولكن عبد الدايم وسلمة كانا يستذكران دروسهما معا، فهما ملتحقان بالدراسات العليا في تخصص واحد، ومغادرته للسكن تسبب لكليهما مشكلة قد تقف في طريقهما فلا تتاح لهما فرصة الدراسة معا.

حقيقة أن منازع الشر كامنة في نفسه راسخة في تصرفه ولكن من مصلحتهما أن يكونا معا، ليس في السكن فهذا غير متاح ولكن في الدراسة والمذاكرة، كل ما كان يجب على عبد

الدايم أن يتخذ مع زميله الحيطة والحذر حتى يبتعد عن المشاكل التي لا يعلم مداها أو ما يمكن أن تسفر عنه سوى علام الغيوب.

اتفقا أن يلتقيا صباح كل يوم يقرآن ويدرسان معا، فإذا انتهيا كان سلمة يسير مع عبد الدايم حتى باب منزله وهما يخترقان طريقا متعرجا طويلا به عدة منحنيات تتراوح بين الضيق والاتساع لمسافة كبيرة، يتلو أحدهما للآخر ما حفظه أو ما فهمه من درس الأمس حتى يطمئن الآخر إلى الاستيعاب.

استمرا على هذا الوضع طيلة العام وعادا إلى القاهرة، واجتازا عقبة الامتحان مظفرين بالنجاح والتقدير.

بعد سنوات من الدراسة المجهدة حصل عبد الدايم على درجة الدكتوراه ولحق به سلمة بعد ثلاث سنوات، فالأمور تتغير والنفوس تتبدل، غير أن سلمة تأصلت فيه عادة لا يمكنه أن يبتعد عنها أو يطردها بعيدا عنه، عادة التخلص من منافسه أيا كانت الصداقة التي تربطهما، فهو يعمل بالطريقة التي يراها، يخطط لها، ويدير تنفيذها، أعلنت كلية البنات بالأزهر عن شغل وظيفة في تخصص البلاغة حاصلا على درجة الدكتوراه.

تقدم عبد الدايم وسلمة على هذه الدرجة، وعمد سلمة على إبعاد زميله عبد الدايم، ليفوز دونه بهذه الوظيفة.

ذهب سلمة إلى الماحي وهو صديق قديم، كان زميلا لنا في التدريس بالمعاهد الأزهرية يعرف طباع سلمة كما يعرف تصرفات عبد الدايم، ولا يغيب عنه شيء من تصرفات الزملاء وأخلاقهم، لا يسعى إليها وإنما تجيئه أنباؤهم بحكم الزمالة والعمل.

ذهب إليه يريد استشارته ويبغي معونته، قائلا: وقد تقدمت لطلب تعييني في الدرجة الشاغرة بالجامعة وأنا أعلم أنك تنحدر من أجداد أزهريين، وشيوخ لهم وضعهم في تاريخ الأزهر، ومشاركتهم في الثورة على تصرفات الحاكم، وتزعمهم للشعب في تظاهرهم وغرورهم، يلزم الصمت لحظة ثم يستأنف: إن المسئول الأول في الكلية التي تقدمت إليها يعرف جدك حق المسلمة، فإذا طلبت منه أن يقف معي ويساعدني على التعيين أكون لك ممنونا شاكرا، ولا أنسى لك هذا الفضل.

قال الماحي: أنت تعرف أن عبد الدايم متقدم لهذه الوظيفة، وكما تعلم أنه نسيبي ومقترن بأختي، فهل أترك الحديث عنه وأتكلم عنك.

إن أخي متخرج في الهندسة ويود أن يقترن بعائلة لها أصولها المتوارثة وأعمالها المجيدة، فإن أشرت عليّ بواحدة فيهـا هـذه الصفات تكون خيرا وبركة، واستمر في هذا التلميـح حـتى يكسبه إلى صفه، وأن يكون قريبا منه نسيبا له حتى لا يتحدث الماحي بخير عن نسيبه عبد الدايم دون أن يتحدث عن سـلمة بمثله يريد أن يستأثر بمساعيه ليكون له نصيب في التعيين.

كان كلام سلمة أقرب إلى التصريح منه إلى التلميح، ولم يكن يخفي على الماحي الغرض من الزيارة، والهدف من ورائها، ابتسم الماحي ابتسامة تدل على أنه فهم الغرض، كما فهـم السـبب الذي دفع سلمة إلى الخوض في مثل هذه الأمور. رغم هـذا تم تعيين عبد الدايم وسلمة بعد أن دبرت الكلية لهما درجتين.

* * *



سافر عبد الدايم مبعوثاً من قبل جامعة الأزهر، كان مدرســـا بجامعة الإمارات منذ افتتاحها، ومنذ شبابه وهو يمارس الرياضة، سافر مع فريق الجامعة إلى دولة قطر مشرفا على فريـــق كــرة السلة، وهناك التقى بالدكتور مهنا أستاذ التاريخ الإســـلامي، ازداد التعارف بين الاثنين وتوثقت الصلة بينهما.

في جامعة الإمارات كان الدكتور ظافر حسن عميدا لكليـــة الآداب وأستاذا للجغرافيا، درس في القاهرة وحصل منها على الدكتوراه، وهو رجل متدين بطبعه، صارم كالسيف في معاملاته يحب أن يعمل كل من حوله من الأساتذة دون تراخ، لا يسمح بالتسيب أو الإهمال، كما يحب أن تسود العلاقات الحسنة بين الأساتذة والطلاب.

عبد الدايم كان يكتب بعض المقالات الدينية بطريقة دورية في أشهر صحف الدولة، يتناول فيها الطفولة، والمـــرأة وعلاقتـــها بالرجل، وحقوق الجيران، وكان العميد يعجب بهذه المقـــالات ويردد بعض فقراتها على الزملاء.

اهتمت دولة الإمارات بجامعتها الوليدة، وأغـــدقت علــى طلابها كثيرا من مباهج الحياة، وتلبي طلباتهم مهما عظمت.

قررت سفر جميع طلابها إلى الدول الأوربيـــة والأســيوية، فاختار العميد عبد الدايم ليكون مرافقـــا للفـــوج المســـافر إلى باريس، ليتمتع الطلاب بمعالمها ويتذوقوا حضــارهّا وتقــدمها، ليشاهدوا برج إيفل، ويقفوا على أحـــوال النـــاس وثقافتـــهم وأذواقهم، وعلى حضارة باريس وما فيها من زوعـــة وجمـــال ومتاحف، هذه الحضارة التي صنعت من الفرنسيين شعبا متقدما ذا حضارة عريقة، وقد اختار العميد عبد الدايم لأنه يتنبـــأ لـــه بمستقبل زاهر بمروره على البلد الذي درس فيه د/طه حسين.

كان للطلاب جولاهّم الحرة، يســيحون في دروب بـــاريس ومنعطفاهّا، يلجون شوارع الفنانين ويشاهدون لوحاهّم،كثير منهم دعا الفنانين التشكيليين ليصوروهم في الفنادق التي يقطنون بها.

زار عبد الدايم جامعة السوربون، رأى جمعا مـــن الطـــلاب والطالبات يتبادلون القبلات، يتلامسون بالأيـــدي، وتتعـــانق الأذرع، لم يلفت ذلك نظر أحد، فلم يلتفت إليهم زميل أو زائر فهذا لا يعني شيئا سوى الصداقة البريئة والزمالة الدائمة.

سمع صوت فتاة تناديه باسمه ولغته العربية د/ عبـــد الـــدايم، اعترته الدهشة لسماع اسمه ولقبه، رأى فتاة ملامحهـــا شـــرقية هّرول إليه، تحمل على وجهها ابتسامة راضية، تقبل عليه، أنـــا

كنت طالبة أدرس عندك في القاهرة بجامعة الأزهر، وجئت هنا إلى باريس التي تعمل بها أختي بحثا عن عمل، وأختي تساعدني في البحث وما زلت حتى الآن بلا عمل، أختى تعمل هنا في إحدى الشركات الفرنسية، لعلها تجد لي عملا.

وافترقنا على أن نلتقي مساء ومعها أختها في بهو الفندق الذي أقيم فيه.

راح عبد الدايم يجوس في أنحاء جامعة السوربون مغادرا المقصف إلى مدرج متسع، مدرج كلية الحقوق، رفع رأسه إلى سقف المدرج وحوائطه، الجدران مرسوم عليها صور نساء عاريات يحتضن رجالا شبه عرايا، وصورهن تملأ الجدران من فوق مقعد المحاضر ومكتبه حتى أعلى السقف، فتصبح أمام عين المشاهد من بعيد مباشرة، هذه الصور الفاتنة ووضعها هنا في مدرج الشرائع والقوانين، ما العلاقة بينهما؟ وما الصلة التي يتعامل بها الناس وبين الحقوق والواجبات؟ أعياه التفكير فلم يدرك لذلك سببا، إلا إذا كانت العلاقة هي التضاد، أو أن الدولة تحب أن ينغمس شبابها في هذا العري السافر بدعوى حرية الفن ومشاهدة صوره.

أخذ يتنقل من مكان إلى آخر، يسيطر عليه الانبهار بما كان يرى، بما كانت عليه الجامعة من نظام وترتيب ونظافة وذوق رفيع.

تذكر عبد الدايم كلية البنات التي يعمل بها وتتبع جامعة الأزهر، كل شيء افتقده هناك في جامعة الأزهر وجده في باريس، افتقد النظافة والنظام والذوق الرفيع الذي ينادي به الإسلام، ووجده هنا في باريس بلد التحرر والانضباط.

ذهب عبد الدايم إلى الفندق والتقى بتلميذته رجاء التي لقيها صباح اليوم في السوربون، كانت معها أختها، تعيش الاثنتان على المرتب الذي تعمل به الأخت الكبرى، فمرتب واحد لا يكاد يغطي نفقة اثنتين، وشعر عبد الدايم أن رجاء وأختها يعيشان حياة بائسة، يعيشان في إمساك، عرض على رجاء بعض الفرنكات وألح في دفعها إليها حتى ولو على سبيل الدين، وكان المبلغ كبيرا يسيل له لعاب من يعرض عليه، ولكنها تمنعت ورفضت رفضا قاطعا، كم سعدت بلقاء إحدى طالباتي في باريس، لم أكن أتوقع حدوث ذلك على الإطلاق، ولكنه حدث بالفعل.

الفندق يموج بالفنانين التشكيليين، رجاء على وعد بتصوير الطلاب الخليجيين ولقائهم بالفندق، بعضهم يمارس الرسم والتصوير، وآخرون يتهيأون لذلك، يستخرجون أوراقهم وأقلامهم من مكانها انتظارا للطلاب لقاء بضعة الفرنكات.

هذه الأحداث المتدفقة على رأس عبد الدايم طفت على سطح ذاكرته دون استدعاء لها، خواطر كانت مطمورة تحت القاع منذ سنوات وخرجت دون نداء.

إن جامعة قطر هي الأم الرءوم التي أخذت بيد ابنتها الوليدة جامعة الإمارات في افتتاحها وقبول أبنائها، عاونتها بخبرتها واختيار الإداريين بها، رسخت مناهجها ونظمها ودراستها وامتحاناتها.

أعلنت جامعة قطر عن حاجتها لأساتذة يعملون بها، ذهب عبد الدايم ليلتقي بأعضاء اللجنة ومن بيدهم ترشيح الأساتذة للعمل بجامعة قطر، ترى اللجنة هذه الأمور التي تبدو إنها سطحية: الهيئة، طريقة التفكير، المؤلفات، أسلوب المتقدم في طريقته للإجابة، هل لديه فكرة عن الحياة في قطر؟ في دول الخليج؟ وهل سافر إلى قطر قبل ذلك؟.. إلى آخر هذه الأسئلة.

عبد الدايم عندما كان مدرسا بالإمارات ذهب إلى قطر مشرفا على فريق كرة السلة في مباراة ودية، والتقى في قطر بالدكتور مهنا أستاذ التاريخ الإسلامي ولزمه طيلة اليومين اللذين قضاهما بقطر.

كانت اللجنة مشكلة من عضوين: الأمين العام للجامعة وهو قطري الجنسية، والآخر نائب رئيس الجامعة وهو مصري وأستاذ في تربية عين شمس.

تقدم مع عبد الدايم د/ حسن عبد الواحد زميل آخر في نفس التخصص، يبدو عليه أنه من أسرة ريفية لم تخرج من القرية إلا عند الضرورة، لم تنل حظها من ثقافة العصر، أو التقدم الـــذي يعيش فيه أهل القاهرة، بإمكاناتها المتعددة، وبحالاتها المختلفـــة وأخلاقها المتغيرة، ومعيشة أهلها الســـهلة، وهـــي تختلـــف في جذورها عن معيشة أهل الريف وحياتهم.

أخبر حسن زميله عبد الدايم بعد لقائه باللجنة، أنهم ســـألوه: لماذا تود السفر إلى دولة قطر للعمل بجامعتها؟

إنها أمور خاصة تتعلق بي شخصيا! فهل تتصور أنهم سألوني: وما هي هذه الأمور الشخصية التي تعتبرها خاصة؟!

أجاب د/ حسن: إن لم تكن خاصة لذكرتها لهـــم، ولكنـــهم يريدون معرفة خصوصياتي، ويتدخلون في شئون حياتي.

قال حسن لزميله عبد الدايم ذلك بطريقة جادة لا هزل فيها، وإن كان يشوبها كثير من التعجب والغرابة.

نسي عبد الدايم الأمر برمته، وحديث حسن إليه، ولم يعـــول على السفر كثيرا.

بعد أسبوع تقريبا، على حين فجأة ومن غير توقع، وصل عبد الدايم خطاب بترشيحه ليقوم بالتدريس في جامعة قطر.

* * *

اصطحب عبد الدايم أسرته وسافر بها إلى دولـــة قطـــر ، وهى على الخريطة تشبه كف اليد ، واستضافته الجامعـــة مـــع زملائه القادمين للتدريس بالجامعة بشيراتون الدوحة الذى يطل على ناحية الخليج، لم يكن أحد يعلم مقدار المدة التي سيمكثونها بالفندق أسبوعاً أو شهراً أو عدة أشهر لا أحد يعرف على وجه الدقة ، فالجامعة تقوم بدور تجهيز المساكن بهمة ونشاط .

في صبيحة اليوم التالى ذهب عبد الدايم إلى مقـــر عملـــه بكلية الآداب ليلتقى بالأساتذة ويتعرف على أعضاء قسم اللغة العربية ورئيس القسم والعميد .

التقى في الجامعة بالدكتور مؤمن رئيس القســـم ، كـــان رجلاً بسيطاً للغاية قارب الستين ، مرحاً ، دمث الخلق ، ودودا في معاملته ، متعاطفا مع الناس والزملاء .

كما التقى بالدكتور شتا أستاذ اللغة في بنات عين شمس ، كان على النقيض من الدكتور مؤمن رئيس القسم، دءوب على المشاكسة والاعتراض في كل صغيرة وكبيرة ، يرى أنه الأجدر برئاسة القسم من الدكتور مؤمن، و ستئول الرئاسة إليه بعـــد نهاية خدمة رئيس القسم الحالى .

وكان واضحاً أن د / شتا على صلة قوية بالعميد يستمد قوته منه ، فقد كانا زميلين معاً في القاهرة ، يعملان معاً في كلية واحدة ، بنات عين شمس والصلة بينهما وثيقة للغاية لا تنفصم عراها .

الأساتذة الجدد الذين يقيمون بالشيراتون ، رأوهما معـــاً على دعوة عشاء في الفندق ، والداعى هو شتا ، والعميـــد في ضيافته ، فالعلاقة بين الاثنين طيبة للغاية ، وإن كانت تصرفات شتا فيها شيء من الحمق و مجاوزة الحد ، فهـــو دائـــم النقـــد والتلاحم مع الدكتور مؤمن ، حتى إنهما اشتبكا في فناء الكلية بعد انتهاء مجلس القسم ، كانت الجلسة ســـاخنة ، والموقـــف عاصف، حتى إن العميد ضاق صدره بتصرفات شتا ، وتدخل بلباقته وحسن تصرفه أن ينهى المشكلة ، فهما دائمـــا النقـــار والمشاحنة ، والمعتدى دائماً هو شتا، حتى وقف العميد متصدياً له ونحى باللائمة عليه ، ووصفه بأنه مثل قنبلة موقوتة ينفلـــت أمامها وتنفجر في أية لحظة .

اعتاد الزملاء على تصرفات شتا ، دائم الشقاق ، متوتر المزاج ، خفيف الأعصاب ، يرسمون له صورة كئيبة في أذهانهم، مما ترك في نفوسهم أسوأ الأثر.

غير أنه لم يتزوج قط وقد تجاوز الخامسة والخمسين ، يعيش وحيداً لا زوج ولا ولد ولا أسرة ، انعكست هذه الحالة على تصرفاته كلها ، في سلوكه ، وخلقه ، ومعاملته ، حتى مظهره الخارجي ، غارق في الذهب من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، النظارة مؤطرة بالذهب ، أزرار قميصه من ذهب ، الدبوس الذى يضعه في رابطة عنقه من ذهب ، ما يدور على معصمه ويحيط بالساعة من ذهب ، خواتيمه من ذهب ، كل ما فيه مصوغ من الذهب ، لم يترك شيئاً من ملابسه إلا وزانه بالذهب، فصاغ من نفسه تمثالاً من ذهب يتحرك ويتوقف ، ويتكلم ويصمت ، وكأنك تنظر إلى واجهة زجاجية وراءها تمثال يلفت الأنظار ، يشعر في قراره نفسه بالعظمة والترفع ، وكل ما خلق الله محتقر في همته ، فهو أعلى قدراً وأرفع مكانة من زملائه الذين يأنفون استعمال الذهب وارتدائه، ولا تميل نفوسهم بالتزين به ، فذلك عندهم سوء تصرف وإنفاق المال فيما لا طائل وراءه ولا فائدة فيه .

بلغ الدكتور مؤمن التقاعد وانتهت إعارته بانتهاء العام الدراسي ، وخلفه شتا على أن يكون رئيساً للقسم في بداية العام المقبل .

كان شتا يتسم بعادات غريبة يراها عبد الدايم وزمـــلاؤه غير مألوفة ، فهو يحضر الكلية مبكراً قبل الـــدوام في الســـابعة صباحاً يدير المفتاح في ثقب باب مكتبه ، ولا يبقى فيه لحظـــة ، يتجه مباشرة إلى مكتب تصوير المستندات والأوراق ، فإذا رأى أستاذاً يقوم بتصوير بعض الأوراق ، فقـــد ضـــبطه متلبســـاً ، ويدعى أن ذلك مخالف للوائح الجامعية ، ويصر علـــى إبـــداء ملاحظاته وملاحقاته وإلقاء اللوم على من يقترف هذا الفعـــل المخالف. لم يخطر على بال الجامعة أو يجرى في ذهن أحد الزملاء أن ذلك ممنوع أو منهي عنه .

كان يظن أن الأساتذة جميعاً يكيدون له ويبرمون منـــه ، ويقفون منه موقف المتربص المعادى ، فكـــان يتعامـــل معهـــم بأسلوب فظ ويوجه إلى زملائه ألفاظاً نابية .

ذات صباح قرأنا في إحدى الصحف القطرية مقالاً نقدياً شديد اللهجة يدين رئيس القسم بالغفلة والتسيب وعدم تحرى الدقة في كتاب لغوى قررته الجامعة ، واشترك فيه بعض الزملاء وعلى رأسهم شتا ، شاع الخبر في أنحاء الجامعة ، تغيرت نظـــرة الأساتذة إليه ، حتى إنه كان يمشى بين المكاتب ساهم الوجـــه ،

مشوش الفكر ، غافلاً عمن حوله ، فالمقال يحكـــى أن اللغـــة العربية قد تدهورت وأصابها الوهن بســـبب القـــائمين عليهـــا في الجامعة ، وقد كانت من قبل مزدهرة منذ زمن بعيد ، وأظهر المقال كثيراً من تهافت الكتاب وامتلائه بالأخطاء الجسيمة التي وقع فيها د / شتا ، رئيس قسم اللغة العربية ، فاللغة قد هـــبط مستواها منذ أن تولى أمرها الدكتور شتا رئيس القســـم ، إذ لا علاقة له بلغتنا العربية الجميلة .

كان المقال ممهوراً باسم أحد الخريجين في الجامعة .

هاج شتا وماج ، وأرغى وأزبد ، دفعتـــه وساوســـه أن كاتب هذا المقال هو عبد الدايم ، لأنه وقع على كتاب للدكتور رمضان العالم اللغوى الشهير ، الذى اقتبس منه شتا صـــفحات طوال في أطروحته للدكتوراه دون أن يشير إلى الكتاب أو مؤلفه.

علم الدكتور رمضان بهذا النقل من كتابه قبل مناقشـــة الرسالة، وأن الناقل أخفي المصدر، ولم يعلن عن اسم المؤلـــف، اتصل به شتا ليعتذر له عما بدر منه ، وأن الرسالة ستناقشـــها لجنة الحكم صباح الغـــد ، ويلـــح في الرجـــاء أن يتغاضـــى د / رمضان عما فعل، حتى تتم مناقشة الرسالة، ولن ينسى لـــه هذا الفضل أبدا ، لم يقف الدكتور رمضان عقبة في طريق شتا ،

واستوعب الأمر ، ولم يعمل على تدمير شتا ، فقد كان يمكنه أن يقف أمام اللجنة أثناء المناقشة ويطلعها على الصفحات المنقولة بحذافيرها دون تصرف ، فتلغى المناقشة ، وترفض الرسالة .

كان الدكتور رمضان ذا أريحية خاصة يتعاطف مع أبنائه وطلابه ولا يقف لهم بالمرصاد ، حضر المناقشة ولم يتحدث بحرف واحد يسيء فيه إلى شتا .

بعد أسبوع واحد من المناقشة وحصوله على درجة الدكتوراه، وقد وقف منه الدكتور رمضان موقفاً طيباً ، فقد بر بوعده ولم يطعن في الرسالة .

فوجئ بمقال نشره شتا يوضح فيه أن رسالته هو قد سطا عليها الدكتور رمضان واقتبس منها كثيراً من الصفحات ، وأن شتا هو المعتدى عليه .

اضطر الأستاذ اللغوى أن يجلي الأمر حتى يقف القراء على الحقيقة ، فقد وثق به وأعطاه كلمته ، وطلب منه شتا أن يلتزم الصمت، ولا يعلن عن الفضيحة حفظاً لماء وجهه ورفض الرسالة.

هذا الكتاب الذى يحتوى على الإدانة والإهانة للدكتور شتا عثر عليه عبد الدايم في مكتبة الخانجى بالقاهرة، بإيعاز من بعض الزملاء ، دلّ عليه صديق لشتا .

أعضاء القسم أصبحوا على علم بالسرقة، وانتشر الخبر في الجامعة ، وأصبحت المعركة ساخنة بين الطرفين : مجموعة شتا من جانب تتمثل في العميد وبعض الزملاء في القسم الذين يرجون مداومة البقاء في قطر ، يتمسكون بالجدار الذى يستندون عليه خشية أن يهتز أو يميل ، فتميل معه طموحاتهم وتخطيطاتهم لمستقبل مادى يحسبونه جيداً.

والطرف الأخر عبد الدايم الذى يقف وحيداً يصاول شتا ومن يشد أزره .

في صباح يوم استدعى رئيس الجامعة القطري عبد الدايم للقائه ،كان معه نائبه وعميد الكلية وهما مصريان يؤازران شتا كما يؤازران من وفد معهم من القاهرة ، حتى يكونوا جبهة راسخة لا تعصف بها الأيام ولا احتمالات الزمان .

سأل العميد عبد الدايم إذا كان لديه استعداد لإجراء تحقيق معه بشأن ما حدث بينه وبين شتا في المقال الذى نشرته الصحف بتوقيع أحد الخريجين ، وهو توقيع مزور ، ووافق رئيس الجامعة على هذا الاقتراح .

شكلت لجنة للتحقيق من ثلاثة أعضاء من كبار الأساتذة في الجامعة : رئيس قسم الفلسفة ، ورئيس قسم الجغرافيا ،

ورئيس قسم الاجتماع ، كان هذا المقال هو السبب الحقيقي الذي يريدون به إدانة عبد الدايم ، ولكن الأسباب المعلنة أن عبد الدايم لا يؤدى عمله على الوجه الأكمل ، ويكسل في القيام بواجباته التي أنيطت به من قبل الجامعة ، أضف إلى ذلك أنه يخالف نظم الجامعة فيقوم بتدريس أربع محاضرات لفرقة واحدة في زمن واحد .

قالوا كثيراً من الاتهامات التي تصدى لها عبد الدايم .

كان شيئاً طبعياً أن يتضامن أعضاء اللجنة مع شتا وأن يتربصوا بعبد الدايم ، ولكن الحجج التي ساقها عبد الدايم واضحة قوية تبرهن على براءته ، حتى جمعه لأربع محاضرات يلقيها معاً ، أبرز لهم دليل الجامعة أن أحد الزملاء وهو عراقى الجنسية مدون له أربع محاضرات معاً ، فكيف لا يباح له ما يباح لغيره .

كان دفاع عبد الدايم عن نفسه دفاعاً قوياً لم تستطع لجنة التحقيق أن تدينه بشىء ، مما برهن عليه بصحة أقواله ، وأنه لم يخالف النظم التي وضعتها الجامعة ، وإنما هى أراء شخص يطلق الاتهامات جزافاً من غير سند أو دليل .

تعاطفت اللجنة مع عبد الدايم لتلك التهم التي ألقاها شتا في وجهه ، وشعرت بأنها مكيدة ملفقة حتى يدان عبد الدايم ويقصى عن قطر .

أعلن المحققون براءة عبد الدايم من التهم المنسوبة إليه ، رأي أحد أعضاء اللجنة بعد انتهاء الجلسة يضرب كفا بكف ويحدث نفسه في غيظ واستياء .

كان هذا التحقيق قبل انتهاء العام الدارسى بيومين اثنين فقط ، في وقت حرج يحدث خلطاً وبلبلة في حياة أى أستاذ تنتهى إعارته في هذا الوقت القاتل ، حتى لا يجرؤ أستاذ أخر على الوقوف في وجه رئيسه أو معارضة أقواله .

يحدث هذا التحقيق قبل يومين من مغادرة قطر دون نظر إلى الإجراءات التي ينبغى أن يتخذها الأستاذ قبل سفره نهائياً وعدم العودة ، فلابد من تحضير أوراق أبنائه الذين ينتظمون في المدارس الإعدادية والثانوية وإجراءاتها ، وإنهاء معاملته هو شخصياً ، والحصول على مستحقاته مما يستدعى الانتهاء منه في مدة لا تقل عن أسبوعين، فعبد الدايم إذا أقرت اللجنة إدانته ، فلا يستطيع أن يدبر شأنه ويحزم أمره على عدم العودة ، وبذلك تكون العقوبة مضاعفة ، لا لأن عبد الدايم حريص على

البقاء بدولة قطر ، ولا جامعة قطر ، ولا العمل مع نوعية الأساتذة التي تتماسك وتخشى أن تهوى من هبة ريح فيتخلخل البناء المتلاحم القوى .

أمسى الوقت ودخل الليل وسحبت الشمس الحارقة ذيول أشعتها الملتهبة ، وانزوت وراء الأفق ، لم يعد لها التأثير القوى الفعال الذى تشوى به الأجسام، وتحرق الجباه طوال النهار ، ولمعت النجوم كقطع الماس في السماء منشورة على بساط أزرق ، وهبت لفحة من هواء غيرت من هواء الليل الساخن .

أقامت الجامعة حفلاً في حديقة الجامعة الواسعة التي تتراشق فيها هامات الأشجار والنخيل ، وامتلأت ردهاتها ومناحيها بموائد الطعام الفاخرة والمشروبات الباردة ، حتى تضفي على الجو مزيداً من البهجة والسعادة .

تفرس عبد الدايم في وجوه الأساتذة الحاضرين عله يعثر على غريمه شتا ، أدار عينيه في كل اتجاه ، على المقاعد المبثوثة في أركان الحديقة ، فوق الموائد المتخمة بما لذ من لحوم وفاكهة، في الممرات النظيفة التي تحيط بها الزهور ، لم يجد لشتا أثراً ، لم يعثر عليه ، حتى صوته الزاعق لم يتبينه ولم يسمعه .

عبد الدايم يملؤه الزهو والافتخار يتنقل مـــن مكـــان إلى آخر، حتى يراه جميع الحاضرين ، فهو يعلن عن براءته ، كمـــا يعلن عن فشل شتا فيما أراد أن يلصقه به ، برأته اللجنـــة ، ولم يعد لاتهامات شتا قيمة أو صدق .

أطمأنت نفس عبد الدايم وهو يسير بـــين زملائـــه مـــن الأساتذة منتفخ الصدر فخوراً بنفسه ، رغم أن الجو في هـــذا المكان المفتوح رطباً شديد الحرارة ، ولكن عبد الـــدايم أراد أن يعلن عن براءته ووجوده ، كما أعلن شتا عن اختفائه قابعـــاً في صحن داره .

قضى عبد الدايم بعد هذا التحقيق الشهير الذي دوى في أقسام الكلية والجامعة بأسرها ، وأفرز عن براءتـــه وشـــجاعته وحسن تصرفه ، قضى عاماً آخر وأصبحت المدة التي قضاها في جامعة قطر أربع سنوات، وهى المدة التي تسمح بهـــا جامعـــة الأزهر في الإعارات .

كانت الفترة التي قضاها عبد الدايم حافلة بصداقة أهـــل قطر ، عقد معهم صداقات ومودة ما زالت حـــتى الآن، وهـــو سعيد بذلك حفيّ بامتدادها حتى الآن يزورونه في القـــاهرة إذا وفدوا إليها لقضاء أجازاتهم والتماس راحتهم .

ترك عبد الدايم جامعة قطر وابتعد عن شتا ، ونأى عن العميد ، في نفس العام ، في العطلة الصيفية بلغه نبأ يحمل في طياته مأساة لم يكن يفكر في حدوثها ، ولذا عجب عند سماعها.

كان العميد في طريقه إلى الإسكندرية يقود سيارته بالطريق الصحراوي ، اعترضته حافلة غفل قائدها لحظة فاصطدمت بعربة العميد ، تحطمت السيارة وعجنت بما بداخلها، وصعدت روحه إلى بارئ الأرواح ، ولا يملك له عبد الدايم سوى طلب الرحمة والغفران .

استمر الدكتور شتا في قطر فترة طويلة منذ افتتاح الجامعة مكث بها قرابة ثلاثين عاماً ، مكث بها منفرداً وحيداً بلا أسرة ولا زوج ولا ولد ، يعيش بمفرده يحصى نقوده التي جمعها من شبابه حتى شيخوخته ، لا أنيس ولا جليس ، ولم يشاركه أحد في همومه، لا يتردد في سكنه سوى صداه ، وصورته في المرآة .

منذ فترة قصيرة جاء عبد الدايم نبأ خطير ، فقد كف بصر شتا ولم يعد يرى شيئاً على الإطلاق، لأنه كان يعانى منذ فترة طويلة من مرض السكر اللعين وتداعياته الخطيرة ، وآثاره المدمرة.

* * *

قصة الجن وتحضير الأرواح مضى عليها زمن طويـــل يعـــد بحساب السنين، وقد أسدلت عليها ستائر النسيان، سقطت في بئر، لم يشعر بها عبد الدايم الآن، فقد اختفت في أعماق نفســـه ولم يعد لها ذكر.

حان الوقت لكي تعود الآن إلى سطح الـــذاكرة، بعـــد أن ظلت ردحا من الزمن في غياهب النسيان.

في أثناء إلقاء عبد الدايم محاضرته على طالباتـــه في البلاغـــة العربية.. تعرض لقوله تعالى: "قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ"، أراد أن يبين ما في الآية من تأكيدات على أن هذا العفريت من الجن قـــادر أن يأتي بعرش بلقيس ملكة سبأ من جنوب الـــيمن، إلى ســـليمان بالشام قبل أن تبدو من سليمان أدنى حركة، وطفت إلى سطح الذاكرة الشيخة مديحة، والشيخ حسن، فرواها لطالباته علـــى سبيل الدعابة والتفكه، والشيء بالشيء يذكر.

من الحاضرات مصريات، وطالبات من جنوب شرقي آسيا ماليزيات، وأندونيسيات، وتيلانديات، وفليبينيـــات وغيرهـــن، واستمر في إلقاء المحاضرة، والطالبات يتابعن حديثه، ونسي مـــا

ألقاه في المحاضرة، وأصبح كامنا في أعماق مستودع الـذاكرة، هاجعا لا يحرضه شيء على الخروج إلى أرض الواقع.

قرب الظهر، دق جرس منزله، فتح الباب، هالـه أن يجـد أربعة من شباب جنوبي آسيا عرفهم بسحنتهم، يبدو أنهم مـن ماليزيا، فرحب بهم كضيفان جاءوا لزيارته والتعرف به، لم يدر بخلده شيء أكثر من ذلك.

– نحن من سفارة ماليزيا ونعمل بها، فهل تسمح لنا بالدخول؟

جلسوا في تردد وتودد، قال أحدهم وهو أكبرهم سنا:

– نعرف يا دكتور أنك على صلة بعالم الجن وأن لديك المقدرة على إحضاره وانصرافه، وطالبات ماليزيا عرفت ذلك، وأنـت تلقيه في إحدى محاضراتك، وجئناك في طلب نود أن تجيبنا عليه ونشكرك مقدما، وأملنا ألا تتخلى عن مساعدتنا.

طالبة من ماليزيا نحن مسئولون عنها، وعـن غيرهـا مـن الماليزيات، تلبَّس جسدَها جنيٌّ يذيقها ألوان الهوان وغصـص الآلام، نحاول إخراجه من جسدها ولكنه عصيّ عن الخـروج، حاولنا ذلك مرارا دون جدوى، فنرجو أن تساعدنا على طرده وإبعاده. قال عبد الدايم بشيء من الجفاء ولهجة حازمة لا مجال للمجاملة فيها:

- لا أعرف شيئا عن الجن، لإحضاره أو انصرافه، وما ذكرته للطالبات كان مجرد قصة حدثت أمامي فسردتها كما سمعتها وشاهدتها، ولكن ليس لي علاقة بأعمال الجن أو العفاريت، لا أدري شيئا مما يدور في عالمهم المجهول.

كان الماليزيون بحضورهم إلى منزل عبد الدايم واثقين بأنه سيستجيب لهم، ويذهب معهم إلى منزل الفتاة، فلم يتفهموا الوضع، ويصدقوا الحديث، وينصرفوا من حيث أتوا، أبدوا رغبتهم الملحة في اصطحابه معهم إلى منزل الفتاة المريضة، وأنها ستتماثل للشفاء بإذن الله تعالى إذا عجل على إخراج الجن من جسدها الواهن، ذهب معهم مجاملا تحدوه الرغبة في معرفة شيء عن حياة الماليزيين...

المنزل ضيق متواضع، على باب الغرفة مجموعة من النعال يبدو أنها لزميلاتها في السكن، أو الدراسة، جئن لزيارتها، ومعرفة ما ألم بها من مرض.

لزم عبد الدايم الصمت، ولم يتفوه بكلمة، لا عن تحضير الأرواح أو الاتصال بالجن حضورا أو انصرافا، وترقب ما يمكن أن يفعله أعضاء السفارة الماليزية.

أحدهم بدأ كلامه تاليا بعض الأقوال، واستمر يتلو، حتى تحركت جثة الفتاة الهامدة، تفرك أصابعها، تحرك يديها ثم قدميها وأخذت حركتها تسري من عضو إلى عضو، حتى همت بالوقوف على قدميها، هبت واقفة ساخطة مندفعة تجاه نافذة الحجرة، من يرها وهي في اندفاعها يعتقد أنها تجري مصرة على إلقاء نفسها من النافذة، جرى إليها الماليزيون الحاضرون يمسكون بها لا يريدون أن تفلت من أيديهم، فقد اعتقدوا أنها تجري تتعقب الجن الذي يناوشها ويستبد بها، فهي تحاول أن تقذف بنفسها خلف الجن دون أن تدرك ما فيه من خطورة.

هم يحاولون الإمساك بها، وهي تحاول التخلص منهم، فلما أطبقوا عليها ولم تجد الفتاة المسكينة مهربا منهم، بصقت على الجن أمامها وحولها في كمد وقهر، وهي في حالة من الهياج المريع. قال الشاب الماليزي الذي يتلو الأوراد:

– لقد تلبس جسد الفتاة اثنان من متمردي الجن وعصاتهم، شاب فتيّ، وكهل خبير، يتسمان بالعناد وسعة الحيلة، فإذا أخرجنا واحدا منهما تشبث بها الآخر في استماتة، يخرج الشاب ثم يعود، ويطرد الكهل ثم يرجع، يتبادلان الإحلال والإخراج

على جسد الفتاة المنهك، وأنا لا أستطيع أن أفعل شـيئا كمـا ترى، منذ فترة طويلة وأنا أحاول كما يحـاول غـيري، دون جدوى، فلذنا بك لأنك تحدثت في إحدى محاضراتك عن الجن.

الاثنان: الشاب والكهل يعشقان الفتاة، ويتشبثان بجسدها تشبثاً هائلاً، لقد فعلنا كل شيء، واستعنا بأهل الخبرة في هذا المجال، والنتيجة لا تتغير، وظل الحال كما هو عليه دون تقدم.

أسف عبد الدايم على مصير الفتاة وما تكابـده مـن آلام وأحزان، بسبب هذين العاشقين العنيدين المتيمين بكـل هـذا الحب والهيام، فلا أحد منهما يريد أن يتنازل عن هواه حـتى لا تخلو الساحة لغريمه، ويبوء هو بالهزيمة والخسران.

﴿ تمت ﴾

يناير ٢٠٠٧ م